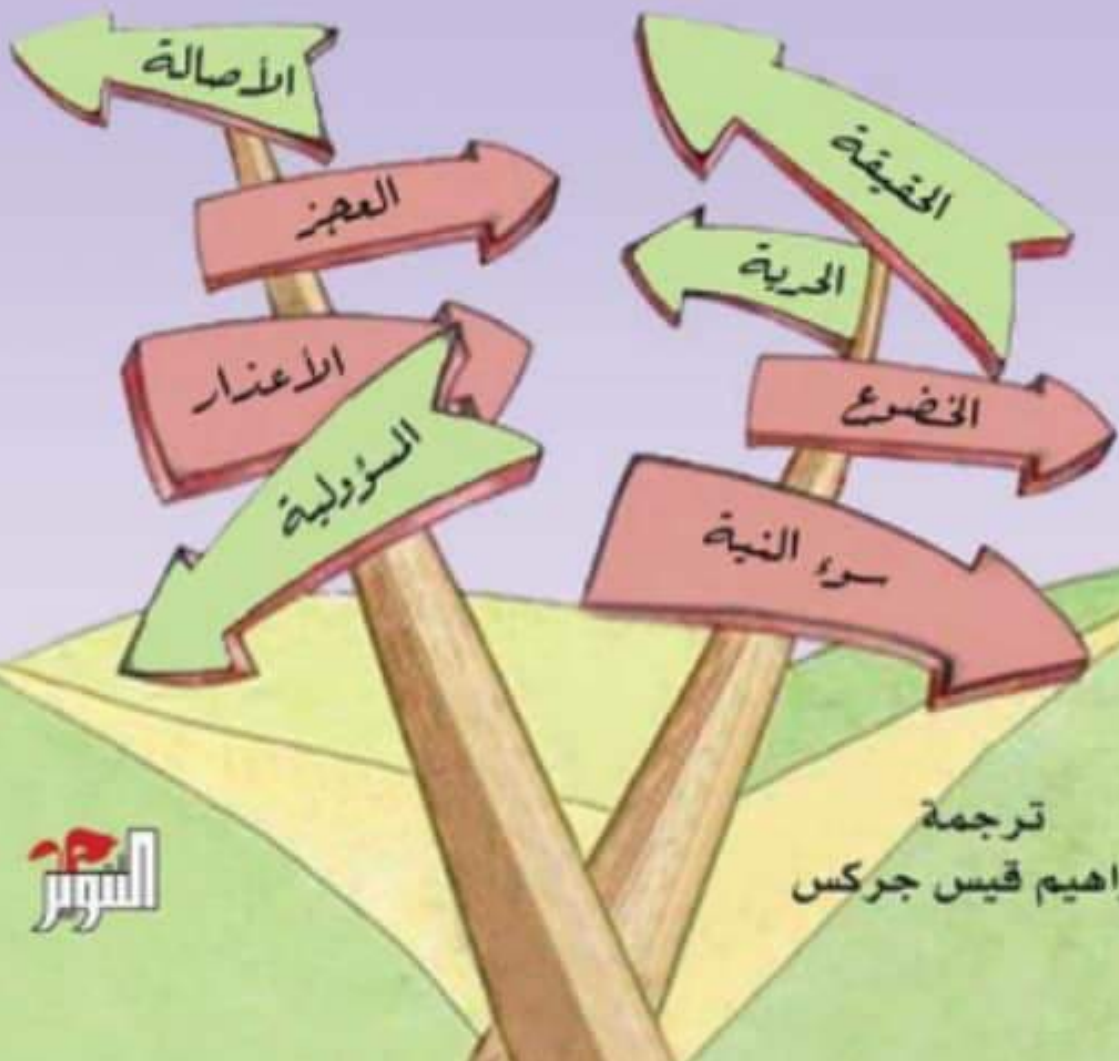


# غارِي كوكس كيف تكون وجودياً

Telegram:@mbooks90

أو كيف تكون أصيلاً، وتمسك بزمام أمورك  
وتتوقف عن اختلاق الأعذار؟



السور

ترجمة  
ابراهيم قيس جركس

الكتاب: كيف تكون وجودياً

تأليف: غاري كوكس

ترجمة: إبراهيم قيس جرکس

عدد الصفحات: 176 صفحة

الترقيم الدولي: 978 - 614 - 472 - 259 - 6

الطبعة الأولى: 2024


هذه ترجمة مرخصة لكتاب

**How to Be an Existentialist**

by Gary Cox

Copyright © Gary Cox, 2009

الناشر

دار التنوير 

لبنان: بيروت - الرملة البيضاء - بناية بنك لبنان والخليج - الطابق الثاني

هاتف: 009611797434

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

تونس: 16 الهادي خفشة - عمارة شهرزاد - المنزه 1 - تونس

هاتف وفاكس: 0021670315690

بريد إلكتروني: tunis@dar - altanweer.com

موقع إلكتروني: www.daraltanweer.net

www.daraltanweer.com

## المقدمة

وفقًا لوجودي أصيل كجان بول سارتر، مهما فَعَلْتِ، ومهما كانت طبيعة فعلك على الإطلاق، حتى لو سَقَطَتْ من على مُنْحَدَرٍ، فأنتِ مسؤولٌ عن ذلك، والأمر حدث باختيارك. لذلك إن قمتِ باختيار هذا الكتاب وفتحه، فأنتِ مسؤولٌ عما قُمتِ به، حتى لو فَعَلْتِ ذلك بشكلٍ لا شعوري وغير مقصود.

ربما تقضي وقتًا في مكتبة تنتظر وصول شريكك أو شريكك في قطار الساعة الثالثة، لا نية لديك لشراء هذا الكتاب لأنَّ هناك، في النهاية، أشياء أكثر أهمية من الكتب لتنفق أموالك عليها. فحبيبتك تتوقع منك أن تقابلها وأنت ممسك كأسًا من قهوة ستارباكس المرتفعة الثمن. بعد فترة وجيزة، سترجع هذا الكتاب إلى الرفِّ مرَّةً أخرى، أو تعيده إلى طاولة تحمل لافتة «احصل على ثلاثة كتب بثمان كتابين»، وترتسم على وجهك معالم تجهمٍ أمام أي شخص قد ينظر إليك: «أنا لا أرفض شراء الكتب، ولكن هذا الكتاب ليس هو الذي أبحث عنه». طبعًا، لا ينبغي أن أفترض أنَّ أفعالك متوقَّعة للغاية. أنت تمتلك حرية الإرادة، وستفعل ما تريد. ولأنَّ لديك حرية الإرادة، كما هو حال الجميع، فأنت لديك القدرة على أن تُصبح وجوديًا حقيقيًا، هذا إن لم تكن كذلك أصلًا.

ربما كنتِ تجالسين أطفال الجيران، وبعد أن تؤويهم إلى الفراش، الذي ربَّته تحتهم جيدًا، تقززين التَّحَقُّق من مكتبتهم لمعرفة درجة جهلهم وافتقارهم للثقافة. وفجأة يلفت انتباهك هذا الكتاب الصغير لأنَّك ربما تعرفين الكثير أو القليل عن الوجودية، ولأنَّه صغير الحجم نسبيًا، بينما معظم الكتب عن الفلسفة الوجودية التي سبق لك رؤيتها ضخمة وثقيلة، كما أنَّها تحمل عناوين أكاديمية غامضة أو زئانة غالب الأحيان مثل «الكينونة والزَّمان»، أو «فينومينولوجيا الإدراك»، ولأنَّه كما يبدو سيوفِّر لك فرصة جيِّدة لكي تصبحي إنسانةً واقعيةً ومميَّزة، فقط لو كان بإمكانك قراءة كل شيء.

ربما لم تلتقط هذا الكتاب عن غَدمِ درايةٍ أو إدراكٍ إطلاقًا، ولكنَّ الهدف واضح تمامًا. جيِّد. مع هذا النوع من المواقف الحاسمة، أنتِ فعليًا في طريقك لأن تُصبح

وجوديًا حقيقياً. لقد طلبته عن طريق الإنترنت في يوم سابق عن طريق بطاقة الائتمان التي لطالما أسأت استخدامها، ووجدته موضوعاً في صندوق رسائلك وقد وصلك للثو. لقد مزقت ورق التغليف الذي يُغلفون به الكتاب وشرعت بقراءته على الفور. أنت تبحث عن اتجاه ما في حياتك، وفي سبيل تحقيقك لهذه الغاية قررت أن تصبح وجودياً، أن تنضم إلى جماعة هؤلاء الأشخاص الأكثر غرابة والتي يُساء فهمها؛ ذلك المجتمع الذي ليس فيه رسوم عضوية، اللهم إلا إذا كانت صحتك العقلية أو حتى روحك؛ النادي الحصري الذي يتكوّن من ذلك النوع من الأشخاص ذوي التفكير المستقل والذين لا ينضمون إلى أي نوادٍ أصلاً ولا يتبعون القطيع. الممثل الكوميدي غروشو ماركس، ولا ينبغي الخلط بينه وبين الفيلسوف كارل ماركس - مع أنه لا يقل عنه ذكاءً وفطنةً - قال ذات مرّة: «لا أريد أن أنتمي إلى أي نادٍ يقبلني شخصياً عضواً فيه». حسناً، الوجودي الحقيقي لا يرغب بالانضمام إلى أي نادٍ فيه أعضاء.

بمجرد أن تنتهي من كل المقدمات والفصول التمهيدية، أوّل شيء يحاول هذا الكتاب تحقيقه هو أن يشرح بطريقة بسيطة ومباشرة ماهية الوجود. فهناك المئات من الكتب الأخرى التي تُشرح الفلسفة الوجودية بتفاصيل فلسفية أكثر أكاديمية بكثير، وأنا نفسي كتبت عدداً منها، لذلك إذا كنت ترغب بالتعمق حقاً في النظرية الوجودية والاطلاع بشكلٍ أوسع على هذا الموضوع، بإمكانك التحقق من فهرس القراءات الإضافية في نهاية هذا الكتاب.

بعد التفكير ملياً في الأمر، قررت أنه لا يمكن للإنسان أن يكون وجودياً حقيقياً ما لم يعرف الشيء القليل عن الفلسفة الوجودية، أو النظرة الوجودية إلى العالم. ومع ذلك، إن معرفة القليل أو الكثير عن الوجودية لن يجعلك، في حد ذاته، وجودياً أصيلاً. لكي تكون وجودياً فعلياً، عليك أن تحاول العيش بطريقة معينة أو وفق أسلوب معين، أو -على الأقل- تبني موقف معين تجاه الحياة والموت والآخرين. وأن تكون وجودياً، بالتأكيد، ليس أمراً مقتصرًا على مجرد معرفتك لبعض الأمور. لهذا السبب نجد أن بعض أشهر الفلاسفة الوجوديين لم يكونوا وجوديين حقيقيين أصلاً، لأنهم على الرغم من أنهم يعرفون الكثير من النظريات - إلا أنهم لم يعيشوا الحياة أو



يختبروها، ولم يمارسوا ما كانوا يُبشرون به.

ربما تكفُر القيمة الرئيسية لامتلاك معرفة عملية بالنظرية الوجودية كنظرية فلسفية هي أن نأمل بأن نفهم لماذا من المنطقي العيش وفقًا للنظرية الوجودية للعالم، ولماذا هي الطريقة الأكثر صدقًا ونزاهةً وأصالةً للعيش من باقي الطرق الأخرى. لطالما اعتقد مؤسسو الفلسفة الغربية، اليونانيون القدماء أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو، أن أهم سؤالٍ فلسفي في الكون، السؤال الذي تقود إليه جميع الأسئلة الفلسفية الأخرى، هو: **كيف يجب أن أعيش؟**... إذا كنت مهتمًا بأن تُصبح وجوديًا، فهذا السؤال في الواقع هو السؤال الأقدم والأكثر أهميةً في تاريخ الفلسفة، «كيف يجب أن أعيش؟»، أي، ما الذي يجب أن تهتم به فعلاً؟ على العكس من الدين تمامًا، لا تقول الوجودية «افعل كذا، أو لا تفعل كذا!»، «كُل هذا الطعام، ولا تأكل من ذلك!». التزم بهذه القواعد الثقافية، ولا تجرؤ على انتهاكها أو التشكيك فيها. إنما تصف الوجودية بطريقة متماسكة ونزيهة وصادقة، ماذا يعني أن تكون إنسانًا أصيلاً يمز في هذا العالم الغريب والبارد والموجش وغير المبالي. إنها تهدف إلى إظهار حقيقتك عندما تتخلص من كل الهراء والشفاسف التي يمطر بك بها الوُعاظ والفلاسفة وأولياء الأمور والمعلمون في المدارس. كما تهدف إلى إثبات أنك كائنٌ حُرٌّ بشكلٍ أساسي حتى تتمكن من العيش وفقًا لهذه الحقيقة، بحيث يمكنك البدء في تأكيد حريتك الفردية، و«طبيعتك» الحقيقية، بدلًا من العيش وكأنك روبوت مُبرمج من قبل الآخرين، ومن الثقايلد الاجتماعية والدينية، والأخلاق، ومشاعر الذنب، وجميع عوامل وقوى الاضطهاد القديمة الأخرى.

تتعلق الوجودية بالحزبية والخيارات الشخصية. إنها تتعلق بمواجهة الواقع بصدق وشجاعة ورؤية جوهر الأشياء، بالإضافة إلى كتابة كلمات مثل «خيارات» بخط مائل. أن تُصبح وجوديًا يتطلب قدرًا معينًا من الجهد. وتكمن الصعوبة الحقيقية في مواكبة ذلك، والمحافظة عليه، والحفاظ على ما يسقيه الوجوديون بـ«الأصالة» *authenticity*، في الوقت الذي يريد فيه الجميع منك، بمن فيهم أنت وجميع من حولك، الاستسلام والخضوع كالجبان لما يطلق عليه الوجوديون «سوء النية» *Bad Faith*. يشبه مفهوم «سوء النية» إلى حدٍ كبير ما يسقيه الفنانون الجادون

والموسيقيون ونجوم موسيقى الروك «الخيانة / *selling out*». يمقت الوجوديون «سوء النية» ويكرهونها، وستحدث لاحقًا بالتفصيل أكثر عن «سوء النية» و«الأصالة». في هذا الكتاب الكثير ليقوله عن هذين المفهومين لأنهما يقعان في صلب وجوهر الوجودية، وفي صلب معنى أن تكون وجوديًا.

لا أرغب بالإطالة أكثر في الحديث عن الجهد المطلوب لتكون وجوديًا، لأن ذلك ليس بصعوبة إصلاح سيارة، أو تعلّم لغة أجنبية جديدة على سبيل المثال. ومع ذلك، فقد تعلّم الكثيرون من الوجوديين التحدّث باللغة الفرنسية أو الألمانية قبل أن يصبحوا وجوديين بوقت طويل. أن تكون وجوديًا ليس مهارة بالمعنى الدقيق للكلمة. أو لعلّ الأمر كذلك؟ صراحةً أنا لا أعرف. يدرك الوجودي دائمًا -إذا كنت كذلك- وضعة عندما لا يكون متأكدًا من شيء ما. إنّه لا يحاول أبدًا في سبيل راحة باله أن يقنع نفسه بصحة أيّ معتقدات مهما كانت. غنت فرقة البيتلز ذات مرّة: «تعرفين بأني سأقدم لك كل ما لديّ من أجل راحة البال». حسنًا، لن يمنحك الوجودي أيّ راحة بال ما لم يكن قد حصل عليها هو في الأساس. يمكن أن يحتمل الوجودي كلاً من حالة انعدام اليقين والحقيقة القاسية. هل هو فيلسوف؟ لا تهتمّ، الوجودي هو نوع من الفلاسفة، تمامًا كما أنّ الوجودية فرعٌ من فروع الفلسفة. يمكنك اتّخاذ قرارك في نهاية هذا الكتاب سواء كنت تعتقد بأنّ كونك وجوديًا محض مهارة أم لا.

الفلاسفة الذين هضموا جميع القواميس والموسوعات في مكتباتهم الجامعية، وهم غالبية الفلاسفة، يسمون الوجودية بالأنطولوجيا الظاهرية *Phenomenological Ontology*، لكنني أمّل أن أتجنّب هذا النوع من المصطلحات الزنّانة والفاخرة قدر الإمكان في هذا الكتاب الخفيف الوزن وغير المسؤول عن المسؤولية والعديد من القضايا الثقيلة. إذا كنت من هواة المصطلحات الظنّانة، بقدر ما يفعل أغلب الناس أكثر ممّا يعترفون، فاقرا كُتبي الأخرى الأكثر جديةً عن الوجودية، وبالتحديد كُتبي عن الفيلسوف الفرنسي الشهير جان بول سارتر. هذا هو المكمل الثاني الوقح لكُتبي الأخرى في مساحة المقدمة الوجيزة هذه، ولكن على الوجودي ألا يخشى -إذا كنت كذلك- من أن يكون جريئًا جدًا أو، في هذا الضدد، منطويًا على نفسه. لقد استخلص بعض الوجوديين، الواقعيين منهم

والخياليين، طيفًا واسعًا جدًا من حالة الاغتراب والتشظي هذه.

لذا، إذا كنت قد قرأت هذه المقدمة وتخطط لمتابعة القراءة، فأهلاً بك في كتاب آخر من كتب المساعدة الذاتية التي ستغير طريقة تفكيرك وشعورك حيال حياتك. حسنًا... في الحقيقة، أمل أن تكون فائدة الكتاب أكثر من ذلك. أملي هنا هو أن يغير الكتاب الطريقة التي تفكر بها، وتتصرف فيها. ترى الوجودية أنه لا يمكنك تغيير الطريقة التي تفكر وتشعر بها حيال حياتك إلا من خلال التصرف بشكل مختلف، من خلال التصرف والفعل بدلاً من مجرد الاكتفاء بزد الفعل، من خلال تأكيد إرادتك بدلاً من مجرد السماح لنفسك بالانجراف مع الظروف، ومن خلال تحقل مسؤولية أفعالك وتصرفاتك دائمًا.

كما سبق وأسلمنا، تدور الوجودية برمتها حول فكرة الحزية. ففي صميم الحرية يقع الاختيار، وفي الاختيار الصحيح يقع الفعل. الفعل، إذا، يقع في صميم الوجودية، أي في صميم الوجود البشري تمامًا. يقول سارتر: «الكينونة هي ما تفعله»، تلخص هذه المقولة مدى أهمية الفعل. إذا كان الناس يعرفون شيئًا واحدًا فقط عن الوجودية فهو أنها تميل إلى القول بالمأثور: «الكينونة هي ما تفعله». وأول ما سمعته عن سارتر والوجودية كان عندما أخبرني أحد الأصدقاء هذه النكتة الفظيعة والدقيقة في آن واحد:

«أن تكون يعني أن تفعل» -جان بول سارتر «افعل ما تفعله» -فرانك سيناترا(1).

وأخيرًا، إخلاء للمسؤولية أقول: إذا لم يغير هذا الكتاب طريقة شعورك وتفكيرك وتصرفاتك نحو الأفضل، أو بالطرق التي تتوقعها وتأملها، فلا تلمني! أنا المسؤول عن تأليف هذا الكتاب، لكئك المسؤول عن شرائه أو استعارته أو سرقة، وقراءته، وما تستخلصه منه، وما تفعله أو لا تفعله زدًا عليه. إن إلقاء اللوم على الآخرين في الأمور التي تتحقل أنت مسؤوليتها فعلًا أمر مألوف وليس بجديد. يمكنك القول بأننا نعيش في ثقافة إلقاء اللوم، أو بتعبير أدق، ثقافة إلقاء اللوم على الجميع ما عدانا نحن أنفسنا. «لقد قمث بذلك بسبب الظروف التي نشأت فيها»، «فعلت ذلك لأنني انخرطت بالثلة الخطأ»، «إنه خطأ معلمي، لقد فشل في امتحاناتي لأنني لم

أحضر سوى نصف المحاضرات، ودخلت أخرى متأخرًا بحجة أنني كنت في جنازة»، «كان الخطأ خطأ ماكدونالدز في أن قهوتي كانت ساخنة، واحتزق فمي عندما شربها». سلسلة ماكدونالدز هي المسؤولة عن سخونة قهوتها، وعن الكثير من الأمور الأخرى إلى جانب ذلك، لكن الزبون هو المسؤول عن شراء تلك القهوة وشربها. هناك أشخاص يعانون من السمنة المفرطة يتجولون هنا وهناك وينتقلون من مطعم إلى آخر بمحض إرادتهم ويقاضون ماكدونالدز بصفته سببًا لسمنتهم المفرطة، لكنهم مخطئون في ذلك. إن الثقل من المسؤولية وإلقاء اللوم على الآخرين فيما تفعله أمر شائع للغاية، لكنه كان، وسيظل دائمًا، غير وجودي ولا أصيل على الإطلاق.

كثيرًا ما اتُهمت الوجودية بأنها مجموعة من الأفكار الخطيرة. ففي العام 1948، مثلًا، قرّرت الكنيسة الكاثوليكية، بحكمتها الأزلية المقدسة، تحريم أفكار جان بول سارتر الإلحادية، والوجودية الثورية الفناهضة للسلطوية بوصفها أفكارًا خطيرة لدرجة أنها وضعت أعماله كلها ضمن فهرس الفاتيكان للكتب المحظورة *The Index Librorum Prohibitorum*، حتى تلك الكتب التي لم يكن قد ألفها بعد! لكن في الحقيقة، ليس هناك أفكار خطيرة، هناك فقط ما يختار الناس فعله بالأفكار التي قد تكون خطيرة، خاصة تلك المتعلقة بالوضع الزاهن وسلطات الأمر الواقع، كالحكومات والأديان والشركات متعددة الجنسيات الأخرى. اختز ما تريد فعله بهذه الأفكار كما يحلو لك، أو اختز ألا تفعل شيئًا حيالها -شخصيًا، لا أهتم- لكن تذكر ما يقوله الفلاسفة الوجوديون: عدم الاختيار بحد ذاته خيارٌ تتحمل مسؤوليته أنت وحدك.



## الفصل الأول

### ماذا يعني أن تكون وجودياً؟

عزف معجم سارتر *The Sartre Dictionary* ، مصطلح الوجودي *Existentialist* ، على النحو التالي: «شخص له علاقة، أو مرتبط، بالحركة الفكرية المعروفة بالوجودية. شخص ما، 'سارتر' على سبيل المثال، تساهم أعماله وأفكاره في بناء الوجودية ونشرها... وأي شخص يؤيد على نطاق واسع نظريات وأفاق الوجودية، أو يحاول العيش وفقاً لمبادئها». هذا التعريف في حد ذاته لا يُخبرنا الكثير عن هذه الفلسفة. إنه مفيد فقط في ما يتعلق بالإدخالين المُشار إليهما بالخُط العريض، والإدخالات الأخرى ذات الإسناد الترافقي المُشار إليها في هذين الإدخالين وما إلى ذلك. الأمر الواضح هنا هو أنه لكي نفهم ماهية الإنسان الوجودي بشكل كامل، علينا أن نفهم ماهية الوجودية *Existentialism* . وتحقيقاً لهذه الغاية، ليس مستغرباً كتابة فصلٍ طويلٍ عن الموضوع يلي هذا الفصل القصير، بعنوان، «ما الوجودية؟».

ماذا يعني أن تكون وجودياً أمرٌ لا يمكن تفسيره حقاً ببضع كلمات، وضمن تعريف قصير، ومن هنا فإنّ عدم كفاية التعريف الوارد أعلاه أمرٌ لا مَهزَب منه. بدلاً من ذلك، ماذا يعني أن تكون وجودياً، وكيف تصبح أنت ذلك الشخص، هي الأمور التي ستُظهر تدريجياً خلال فصول هذا الكتاب. أنا واثقٌ من أنّك في النهاية ستعرف ما «الوجودي» وما الذي سيتطلبه الأمر لتصبح وجودياً. وقبول حقيقة أنّ المعنى الكامل لمفهوم «الوجودي» هو شيء سيظهر لاحقاً، بينما تَمضي قُدماً خلال الكتاب، وسأبدأ بالقول هنا أنه لكي تكون وجودياً حقيقياً، عليك أن تُستوفي ثلاثة شروط مترابطة ووثيقة الصلة مع بعضها البعض:

1) يجب أن تكون مُطلِعاً إلى حدٍ معقولٍ على النظرة الوجودية إلى العالم على النحو الذي صيغت عليه، على مدى سنواتٍ عديدة، على أيدي مفكرين مختلفين أمثال آرثر شوبنهاور وفريدريك نيتشه وجان بول سارتر وسيمون دو بوفوار وألبير كامو وصمويل بيكيت وباغز بانبي.

حسنًا. باغز باني لم يساعد أبدًا في بناء وصوغ نظرية الوجودية، ولكن من خلال تقبله لحقيقة وضعه، وتأكيد لهجزيته، والثصرف بشكل حاسم في جميع المناسبات، يتمتع باغز باني بموقف أصيل يُعْتَبَرُ من المواقف الوجودية الحقيقية. إنه بالتأكيد ليس مجرد أرنب علق في مسارات حياة متسارعة. وتظهر عبارته الساخرة والفناهضة للاستبداد (What's Up Doc?)، وهو يجزئش جزرة مسروقة ببرود، أنه لم يُفاجأ أبدًا، وأنه مستعد لأي شيء يمكن أن ترميه به الحياة أو إلمر فود (Elmer Fudd).

2) يجب أن تكون مؤمنًا بالفلسفة الوجودية ونظرتها إلى العالم إلى حد ما، وأن نُعتقد بصحتها. هذا لا يعني أن تتطابق نظرتك بأمانة مع جميع المقالات والأفكار الوجودية كما لو كانت عقيدة دينية. بغض النظر عن رفضها صراحة، يمكن أن توجه لها النقد كما يحلو لك لأنه إذا كان هناك شيء واحد تشجع عليه الفلسفة الوجودية فهو روح النقد والتساؤل. ومع ذلك، لن يكون الشخص وجوديًا حتى لو كان على دراية بالوجودية كونه دَرَسَ كامو أو أيًا يكن- إذا رَفَضَ تلك المقولات الوجودية باعتبارها هراء محضًا.

أجزؤ على القول إن الشخص الذي دَرَسَ الوجودية بالتفصيل واكتسب فهمًا عميقًا لها لا يمكنه رفضها أو الاحتجاج ضدها بوصفها هراء محضًا وصريحًا لأنها ليست كذلك على الإطلاق. الوجودية فلسفة صادقة ونزيهة حقًا تواجه الحياة البشرية على حقيقتها، وتبني أطروحتها الكاملة والشاملة على أساس بعض الحقائق أو الوقائع التي لا يمكن إنكارها عن الشرط الإنساني وحال البشر، مثل حقيقة أن كل إنسان فان، على سبيل المثال. وكما قال تشارلز ديكنز ذات مرة، وهو يكتب عن تقييم سيدة عجوز تلعب السيد تورفيدروب: «كانت الأشياء متلائمة في مجملها تحول المرء على الاقتناع بها»، [منزل بليك، ص 227]. وبالمثل، هناك حالة تلاؤم بين الأشياء، وتماشك مُذهل لمختلف جوانب الوجودية، مما يجعلها فلسفة مُقنعة للغاية ومعقولة.

يميل الأشخاص الذين يرفضون الوجودية إلى فعل ذلك ليس لأنهم لا يفهمونها، بل لأنهم لا يستطيعون مواجهتها. كما كتبت نيتشه في كتابه ما وراء الخير والشر: «أنا»

لا أحبها' - لماذا؟- 'أنا' لسث مستعدًا لها' - هل سبق أن أجاب أحد على هذا النحو من قبل، [ما وراء الخير والشر، 185، ص 107]. وكما سنرى، يتطلب فهم الوجودية قدرًا أكبر من الصدق والشجاعة والنزاهة الفكرية أكثر من الذكاء والقدرة الأكاديمية.

(3) أن نجتهد ونبدل جهدك، بنجاح نسبي، لتعيش وتتصرف وفقًا لتوصيات الفلسفة الوجودية. يمكن لأي شخص أن يعرف الوجودية ويقتنع بحقيقتها، لكنه لن يكون وجوديًا حقيقيًا ما لم يبذل أي جهد ليعيش الحياة وفق توصياتها.

من الممكن تمامًا أن يعرف الشخص الوجودية، وأن يدرك حقيقتها على المستوى الفكري، لكن معظم الوقت، أو أكثر الأوقات، قد يفشل في العيش وفقًا لنظريتها. الفشل في العيش وفقًا لذلك يعني العيش في ما يسميه الفلاسفة الوجوديون «سوء النية». وسوء النية هو نوع معين من المواقف السيئة، وسأشرحها بالتفصيل في الوقت المناسب. حاليًا، يكفي أن نقول إن من الصعب للغاية تجنب حالة سوء النية. نحن نعيش في عالم إنساني مبني على سوء النية. يقدم موقف «سوء النية» أضرارًا مناسبة وتبريرات واستراتيجيات للتكيف، وشبكات متنوعة تجعل الحياة اليومية أكثر قابلية للاحتمال.

لذا، فإن الوجودي الحقيقي يعرف الفلسفة الوجودية بشكل جيد ويؤمن بتوصياتها ويسعى باستمرار للعيش وفقًا لها. يسعى هو أو هي باستمرار للتغلب على سوء النية وتحقيق ما يسميه الفلاسفة الوجوديون بـ«الأصالة». الأصالة هي الكأس المقدسة للوجودية، الهدف الوجودي الأعظم أو القتل الأعلى. وستكلم بالتفصيل عن الأصالة لاحقًا.

الأمر المثير للاهتمام، هو أنه من الممكن تمامًا أن تكون أصيلاً من دون أن تسمع شيئًا عن الوجودية. خلافًا لذلك، يمكننا أن نزعّم أن الأصالة لا يمكن تحقيقها إلا كنتيجة نهائية لممارسة فكرية - كما لو كان عليك أن تكون قادرًا على القراءة والدراسة، ولديك الكثير من الوقت للبحث عن أي فرصة لتكون أصيلاً. يبدو أن بعض الأشخاص يتعاملون مع ميزة الصدق من منطلق تجربتهم المباشرة في الحياة، أو أنهم يختارون أن يكونوا شجعانًا بشكل خاص أو صالحين أو أحيانًا حقًا. والأرنب

باغز باني أفضل مثال على ذلك، لكن من سيفاجأ عندما يكتشف أنه يقرأ نيتشه عندما لا يكون مشغولاً بممارسة الألعاب، وإرادة قوته، على المرء؟

قد نطلق على هؤلاء الأشخاص، مثل هؤلاء الأرانب المميزة، وجوديين حقيقيين، لكنهم في الحقيقة ليسوا وجوديين على الإطلاق، إنهم ببساطة ما يطلق عليه الأكاديميون الذين درّسوا الوجودية/أصيلين. إنهم لا يصفون أنفسهم بالأصيلين لأنهم لا يفكرون في أنفسهم بهذه الطريقة، إنهم يواصلون إلقاء أنفسهم في كل موقف، وكل ما يقومون به يفعلونه من دون وعي بالذات أو خوفاً أو ندم. ليس من الأصالة أن يعتقد الشخص أنه أصيل فقط. فالشخص الذي يعلن عن نفسه «أصيلاً» يعتقد بأنه شيء ما، كينونة ثابتة، شيء أصيل. لأسباب سوف تتضح لاحقاً، إن الشخص الذي يفكر بهذه الطريقة، أو يمتلك مثل هذا الموقف، هو في الواقع «سئى النية».

لذا، من الممكن أن تكون أصيلاً من دون أن تكون وجودياً، لكن لا يمكن أن تكون وجودياً حقيقياً من دون أن تسعى جاهداً لتكون أصيلاً. بالنسبة لقارئ هذا الكتاب الذي يأمل في تحقيق الأصالة، النقطة الأساسية هي أن الرحلة نحو الأصالة يمكن أن تبدأ بفهم الوجودية وفهم تعاليمها وتوصياتها. لقد ألهم الكثيرون من الناس للشعي خلف الأصالة كنتيجة حتمية لدراسة الفكر الوجودي. إذ تُسلط دراسة الوجودية الضوء على الحقائق الوجودية الأساسية العالقة للشرط الإنساني، وتكشف عن سوء النية، وتؤكد على ضرورة التزام الحزبة والمسؤولية. لذا يمكن أن تكون دراسة الفكر الوجودي عملية تنويرية شخصية عميقة لها أثر كبير على طبيعة الفرد ووجوده في هذا العالم ونظرته إليه.

غالباً ما يُنظر إلى الفلسفة على أنها مجرد فكرة موجودة داخل بُرج عاجي، ولا تؤثر بأي شكل من الأشكال على الحياة الواقعية، وأنها موضوع من بين عدة مواضيع يمكن للفرد أن يتعلمها أو يطلع عليها في محاضرة أو دورة دراسية في الكلية أو الجامعة، وبالتالي فإن القول بأن التنوير الشخصي العميق يمكن أن ينتج عن دراستها بهذه الطريقة قد يبدو ظناً ومبتدلاً. بالنسبة لمؤسسي الفلسفة الغربية القديما، إن تحقيق حالة التنوير هذه هو الهدف النهائي من دراسة الفلسفة. بالنسبة



لأفلاطون، على سبيل المثال، إن الهدف من دراسة الفلسفة هو اكتساب معرفة أسمى بالحقائق. حيث يتمتع الشخص المسلح بهذه الحقائق السامية بالقدرة على التعرف على الفرق بين الواقع الحقيقي والمظاهر الخابئة. يعتقد أفلاطون اعتقادًا راسخًا بأن الشخص القادر حقًا على التمييز بين الواقع والمظاهر سيعيش وفقًا لقدرته هذه، أي إنه سيتوقف عن العيش في كذبة. وعلى غرار الفلسفة الأفلاطونية، على الرغم من أن نظرتها إلى الواقع مختلفة جذريًا، فإن الوجودية تقدم أيضًا سبيلًا للتنويع وطريقًا للخروج من كهف الجهل المظلم، كما أنها منهج لرؤية حقيقة الواقع - أي ما هو عليه فعلاً، بدلاً مما يبدو عليه.

## الفصل الثاني ما الوجودية؟

### نظرة عامة، ودرس تاريخي سريع

من المثير للاهتمام أن التفكير في معنى «الوجودي»، وكيف يكون الفرء وجوديًا، قد أعادتنا مباشرة إلى الوراء للتفكير في ماهية الفلسفة الوجودية. وكذلك هو الحال تمامًا مع الفلسفة. من أجل أن نمضي قُدماً، علينا عموماً العودة إلى الوراء قليلاً، وخاصةً إلى البداية. ذلك لأنه عندما يبدأ الناس في التفكير بأي شيء بعمق، فإنهم عادةً ما يبدأون من منتصف الطريق مع غجز مفاهيمي واضح، وبذلك يكون طريقهم ضحلاً ووعزاً للغاية. إنه عالمٌ غامضٌ وواسعٌ انجرفوا إليه من دون دراية منهم على مر السنين نتيجة وضع افتراضات مختلفة لم يسبق أن فكروا فيها.

تدور الفلسفة إلى حدٍ كبيرٍ حول التخلُّص من تلك الافتراضات والأفكار المسبقة وإلقائها في البحر، ثم التراجع بحذرٍ عن المياه الضحلة للعجز المفاهيمي إلى العمق الفكري الشاسع للعقل المنفتح. ومن الجدير أن نتذكر الفيلسوف اليوناني سقراط هنا. يقول سقراط إن الفلسفة ممارسة غريبة لأنها تُبنى عن طريق الهدم، وما تُهدمه هو الافتراضات المسبقة. على أي حال، كما أمل، سوف تلمخ من أعالي هذا المحيط الشاسع فمُ النهر الواسع الذي يؤدي إلى الحقيقة. فالحقيقة هي، بالمناسبة، أن الحياة ليست ظاهرة «مفاهيمية» على الإطلاق، إنما حقيقةٌ جدًا، ووجوديةٌ للغاية؛ الحياة نُهز من الهراء! حسنًا، ليس هناك أي سببٍ يجعل الحقيقة مُشرقةً ولا معة، مهما قال الشعراء عنها أو وصفوها.

إذًا، ما الوجودية؟ حسنًا، الوجودية، وببساطةٍ شديدة، هي حركة فكرية واسعة من الفلاسفة القارئين في معظمهم، وعلماء نفس، وروائيين، ومسرحيين، وفنانين، وموسيقيين، وصانعي أفلام، وكوميديين، ومتسزبين متنوعين نشأوا خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، ولا يزال تأثيرهم واضحًا حتى الآن. إن معظم الفلاسفة الوجوديين هم في الواقع فرنسيون أو ألمان، ومعهم دانماركي واحد على الأقل.

وبعض الإيرلنديين.

لطالما كان البريطانيون والأمريكيون يُنكلون ويشتمون ويسخرون من الحزب الوجودي الوليد والجامح الذي تقوم مبادئه، حسب رأيهم، على أساس أن الوجودية فلسفة فضفاضة جدًا وتفتقر إلى الصرامة الفلسفية. إنهم يُفضلون البقاء في منازلهم يدخنون غلايينهم فقط، مع تعاليمهم المريحة، ويحتسون أكواب الشاي اللطيفة مع ما يُسفوئه بالفلسفة التحليلية التي يُحبونها؛ ليس كرهاً بالفلسفة القازية، إنما على اعتبار الفلسفة التحليلية أكثر عقلانية ورصانة واستقامة. إنهم يُحبون أن يطوفوا في بحر المنطق والمعنى في اللغة إلى ما لا نهاية - وهذا لا يعني أن الفلاسفة القازيون غير مُبالين بهذه الأمور - بينما يحاولون أن يقولوا الكثير بأقل قدر مُمكن وبأكثر الطرق التي يمكن تخيلها جفافاً. لنقتبس من نيتشه - الذي غالباً ما يكون الفيلسوف الأكثر قابلية للاقتباس منه - إنهم بالتأكيد «يُفضلون مقداراً ضئيلاً من 'اليقين' على مجموعة واسعة من 'الاحتمالات الجميلة'»، [ما وراء الخير والشر، 10، ص 40]. إنهم يرون الفلاسفة القازيون ولا سيما الفلاسفة الوجوديين الأكثر راديكالية مثل نيتشه وسارتر، على أنهم يفتقرون إلى التهذيب، وغريبو الأطوار بأفكارهم الجامحة عن الحياة والحب والجنس والموت.

كُتِب سارتر ذات مرة كتاباً من 2801 صفحة في ثلاثة مجلدات بعنوان: *أحمق العائلة*، وحتى إنه لم يكتب بهذا الطول! كان ينوي تأليف المجلد الرابع، لكنه فقد بصره. لم يفقده بسبب عمله على هذا المؤلف الضخم، إنما بسبب ضغط الدم للإفراط بالعمل. نحن لا نعرف أن سارتر لم ينته من عمله إلا لأنه أخبرنا بذلك. من الواضح أن أحداً لم يقرأ العمل بكامله حتى الصفحة 2801، باستثناء سيده ضبورة جدًا من جامعة شيكاغو تُدعى كارول، والتي قامت بترجمة هذا العمل العملاق وغير المُكتمل إلى اللغة الإنكليزية.

تُعزف الحركة الوجودية من خلال اهتماماتها المشتركة بدلاً من مبادئها المشتركة التي يؤيدها جميع المفكرين الوجوديين، على الرغم من وجود مبادئ مشتركة بين العديد منهم. تُعنى الوجودية في المقام الأول بتقديم وصف فُتماسك للحالة

الإنسانية يعترف بالحقائق الأساسية أو الوجودية المتعلقة بهذه الحالة ويدمجها معها. باختصار شديد، تخبرنا الوجودية عن نفسها وماهيتها من دون هراء أو تزيين أو كلمات ظئنة من هذا العالم البارد واللامبالي. والحقائق الأساسية أو الوجودية للحالة الإنسانية وفقاً للفكر الوجودي هي على النحو التالي:

لا أخذ منا كياناً ثابتاً وبارد مثل الكراسي أو الحجارة، بل نحن كيانات غامضة لا متميزة ضمن عملية مستمرة من التحول والتغير الدائمين. نحن كلنا أحرار ولا يمكننا التوقف عن كوننا أحراراً. نحن جميعاً مسؤولون عن أفعالنا، وحياتنا مليئة بالرغبة ومشاعر الذنب والقلق، وبخاصة القلق حول كوننا موجودين من أجل الآخرين. بمعنى، إن قلقنا حول ما يعتقدونه الآخرون غثاً، يؤدي إلى معاناتنا من المشاعر الفزعجة كالشعور بالذنب والعار والحزج. وإذا لم يكن ذلك شيئاً بما يكفي، فنحن محكومون بالموت منذ اللحظة التي نولذ فيها في عالم خالٍ من أي معنى، حيث يكون الإله بعيد الفنال على أفضل تقدير، أو غير موجود أصلاً في أسوأ الأحوال.

من الغريب أن نقول إنه على الرغم من تراكم هذه القائمة الطويلة القاتمة، فإن الوجودية هي في نهاية المطاف فلسفة إيجابية ومثابرة ومناهضة للغمومية! أنا لا أمازحك! لماذا إذا الوجودية؟

حسناً، لأنها تبين لنا كيف يمكننا الاستمرار في عيش حياة نزيهة وجديرة بأن نعيش على الرغم من حقيقة أن الوجود البشري هو في نهاية المطاف خالٍ من المعنى وغير منطقي. الفكرة العامة هنا هي أنه لا يمكنك عيش حياة صادقة ونزيهة لنفسك على أساس مفاهيم مجرّدة وقصص خيالية. عليك أن تبني حياتك على فهم وقبول حقيقة الأشياء، وإلا فإنك تُخدع نفسك دائماً وتسعى خلف المستحيلات مثل السعادة الثابتة والوفاء الفطلق. ومن المفارقات الوجودية القول: إذا أردت أن تكون سعيداً، أو على الأقل أكثر سعادة، توقف عن السعي المفرط لتحقيق السعادة الكاملة لأن هذه الطريق لا تؤدي إلا إلى خيبة أمل مريرة.

بعض أكثر الناس تعاسةً في العالم هم أولئك الذين يتمشكون بالاعتقاد الخاطئ بأن السعادة الكاملة شيء قابل للتحقيق، وأن هناك حالة مثل «السعادة الأبدية»



فعلًا. إنهم يتألمون ويحبطون باستمرار لأنهم لم يتمكنوا أبدًا من تحويل حياتهم إلى يوم ربيعي سعيد في حديقة مليئة بالأزهار. هذه الحديقة الربيعية غير قابلة للتحقق، ليس لأن أسعار الحدائق مرتفعة هذه الأيام وبعيدة عن متناول معظم الناس، بل لأن فترات ما بعد الظهيرة الربيعية في العالم الحقيقي تتحول دائمًا إلى مساءات، ولأن الورود لديها أشواك، وأزهارها تذبذب بسرعة، ولأن معظم الأيام في أجمل الحدائق قد تتحول في غالب الأوقات إلى ساعات مُملّة جدًا. في الواقع، تقضي قظتي كل يوم من حياتها في القيام بجولات في الحديقة، حديقتها، ولا تشعر بالفأل أبدًا، لكنها قطة وليست إنسانًا. ياه، كم جميل أن تكون قطة! لكن الزم الحذر، ليس من الأصالة في شيء أن تتمنى أن تكون شخصًا آخر، خاصة عندما يكون من المستحيل تحقيق ما تتفناه. الوجوديون الحقيقيون لا يتمنون أبدًا أن يكونوا شيئًا آخر، بل إنهم يريدون ذلك، ويسعون بنشاط لتغيير أنفسهم.

كثيرون من الناس يملكون تلك الفكرة السخيفة، المستوحاة من الأفلام والإعلانات التجارية والمجلات، أن الحياة مثالية. إن مجزذ فكرة أن شخصًا ما في مكان ما يعيش هذه الحياة المثالية فكرة غبثية وغريبة وسخيفة. لذلك فإننا نجدهم يشعرون بغدَم الرضا عن الحياة التي عاشوها أو حتى بالخديعة لأنهم يعتقدون بأنهم يستحقون حياة مثالية لكنهم لا يتمتعون بها، وهي الحياة نفسها التي لا يتمتع بها أحد. إنهم يتوقون لحياة مليئة بالسعادة الكاملة وهذا أمر مستحيل، بينما يفسلون في السيطرة على زمام الحياة التي لديهم ليحفظوا منها حياة أكثر فائدة من خلال الإجراءات الواقعية والحاسمة. الوجوديون غدميون لأنهم يدركون أن الحياة غبثية في نهاية المطاف ومليئة بالحقائق الرهيبة التي لا مفر منها. وهم مُناهضون لهذه الغدمية لأنهم يدركون أن الحياة لها معنى في الواقع: المعنى أو الهدف الذي يختاره كل شخص ليضيفه على وجوده. إنهم يرون أن كل شخص لديه الحزبة المُطلقة في تكوين نفسه وضيع شيء يستحق الغناء والعيش من أجله من خلال الكفاح ضد صعوبات الحياة. إن الحياة، أو بالأحرى الموت، سوف ينتصر في النهاية، لكن المهم هو الكفاح والشجاذ، وقضاء الرحلة بحذ ذاتها.

في مقالٍ فلسفي بعنوان «أسطورة سيزيف»، يُقارن الفيلسوف الفرنسي الوجودي

ألبير كامو الوجود الإنساني بمحنة البطل الأسطوري سيزيف الذي حُكِمَ عليه بدفع صخرة كبيرة إلى قمة تُلّ ليشاهدها تتدحرج مرّةً أخرى إلى السفح، ثم يعيد دفعها إلى الأعلى، وذلك إلى الأبد. يسأل كامو عفا إذا كانت الحياة تستحق العيش نظرًا إلى سخافتها وغبثيتها وعدم جدواها على غرار محنة سيزيف بالضبط.

عند اختيارك العيش، ورفضك احتمال الانتحار الدائم، تُضفي بذلك قيمة وأهمية لحياة خالية من أي معنى أو غاية أو قيمة متأصلة فيها مهما كانت. حين يختار الإنسان أن يعيش حياته بدلًا من إنهاؤها، عليه أن يتحمل مسؤولية حياته. ينتج عن تفسير كامو المتشائم للحقائق الوجودية المُتعلّقة بالحالة الإنسانية نتيجة متفائلة: على الرّغم من أنّ الكفاح في حياة خالية من المعنى والقيمة أمرٌ غبثي، إلا أنه لا يزال بإمكان الإنسان خلق إحساس بالهدف والغاية من الصراع نفسه، ومن خلال الطريقة التي يُشارك بها في لعبة الحياة. إذا كنت تعتقد بأنّ هذه النتيجة لا تحمل أيّة معالم للتفاؤل، فالأمر متروك لك للتوصل إلى نتيجة أكثر تفاؤلًا لا تستند إلى افتراضات ومقدمات خاطئة حول الطريقة التي يعيش بها الإنسان حياته حقًا، وهذه النتيجة بعيدة كل البعد عن القصص الخيالية الساذجة أو التفكير الرّغبوي إذا ما نُظرت في جوهرها بتمعن.

كان الفيلسوف الدنماركي المسيحي المارق سورين كيركجارد، والفلاسفة الرومانسيون الملحدون أمثال آرثر شوبنهاور وفريدريك نيتشه، هم الذين وُضعوا، كلٌ بطريقته الخاصة، الخطوط العريضة لما بات يُعرّف لاحقًا باسم «الوجودية». جميعهم كانوا معنيين بما كُنّا نُسمّيه «حقائق الحالة الإنسانية». وفي النصف الأول من القرن العشرين الثَقَطَ أفكار هؤلاء كلٌ من كارل ياسبرز الذي صاغ عبارة «فلسفة الوجود»، ومارتن هيدغر، وجان بول سارتر، وسيمون دو بوفوار، وموريس ميرلو-بونتي، وألبير كامو. يعرف الجميع أنّ هؤلاء الأربعة الأخيرين كانت تجمعهم معرفة شخصية، بل كانوا يتسكعون معًا في المقاهي البوهيمية الباريسية يحتسون فيها النبيذ الرّخيص ويُدخّنون سجائر الـ«غولواز». لكنّ هيدغر لم يكن من ضمن الشلّة. كانوا سيَتَجَنّبونه حقًا لو حاول التسكّع معهم، ليس لأنّه كان أكبر سنًا وألمانيا، بل لأنّه -ولسوء حظّه- كان نازيًا إلى حد ما. وهذه حقيقة مُحرّجة يجب دائمًا التعامل معها

كلما ظهر اسم هيدغر على وجه الذقة، كان هيدغر عضواً لقرّة واحدة في الحزب الاشتراكي القومي الألماني [النازي] مع أنه تركه عام 1934. من الضعب دائفا فهم اشتراكيته القومية مع حقيقة أنه ألف كتابه الضخم الكينونة والزمان، أحد أعظم النصوص الوجودية في العصر الحديث. نُص على شكل كتاب، وليس نُصاً تحفله على هاتفك المحمول. إن طباعة كتاب الكينونة والزمان على هاتفك سيكون إنجازاً حقيقياً عظيماً.

إن كتابات هيدغر وسارتر وباقي الفلاسفة أرست الوجودية كقرع متميز من فروع الفلسفة. إذ تتلاقى أفكار هؤلاء الفلاسفة لتشكل نظاماً فكرياً متقاسماً إلى حد كبير. يقبغ في قلب نظامهم الفكري المبدأ الرائع الذي ينص على أن «الوجود يسبق الماهية». يُنسب هذا القول عموماً إلى سارتر الذي استخدمه ضمن كتيب صغير ألفه عام 1946 بعنوان الوجودية مذهب إنساني يُلخص فيه وجهة نظر معارضة بشكل أساسي للفلسفة المثالية يرى فيها أساساً عذم وجود جواهر مثالية موجودة في عالم آخر، مخلوقة، ومجردة، وميتافيزيقية تُضفي على الواقع، أو على أشياء معينة، معنى أو غاية. هناك أشياء بذاتها، كالكراسي والحجارة، ولا يوجد شيء يتجاوز سلسلة الأشياء بذاتها سوى الوعي، الذي لا يعدو كونه وعياً لأشياء معينة بذاتها. سنتحدث أكثر عن عذم الوعي لاحقاً.

في ما يتعلق بالبشر على وجه التحديد، تشير عبارة «الوجود يسبق الماهية» إلى وجهة النظر القائلة بأن كل شخص يوجد أولاً، بلا أي ماهية أو هدف أو معنى، ثم يسعى بعد ذلك إلى أن يُضفي على نفسه المعنى والغاية. أن يمتلك ماهية. إن ماهية الإنسان -أو جوهره- هو أن لا يمتلك جوهرًا غير الجوهر الذي يجب أن يخلقه لنفسه باستمرار ومن دون توقّف. غالباً ما كانت حبيبة سارتر المؤقتة وصديقتة طوال حياته وشريكته الفكرية، سيمون دو بوفوار، تقول: «طبيعة الإنسان هي ألا يكون له طبيعة».

والآن قبل أن يمتطي أي أحد ظهر حصان النسوية العالي، أوضح بأن الإنسان هنا يعني الرجال والنساء سواسية. إنها ليست كلمة محدّدة الجنس. الأشخاص الذين

يعترضون على استخدام مصطلح «إنسان» ضمن هذا السياق يُظهرون جهلاً مُدَقِّعاً وفهماً سطحياً. بالعودة إلى الأيام التي كان فيها علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الأخرى مشغولة بموضوع التصحيح السياسي، كنت أخوض محاجة مُهْملة للغاية مع عالم اجتماع مُصَحِّح سياسياً حول استخدام المصطلحين «الإنسان» و«البشرية». كنت حريصاً على مناقشة بعض الأفكار التي كانت لَدَيَّ عن الماركسية معه قَبْلَ أن أَدْرَسَهَا للطلاب الذين كُنَّا نتشارك في تدريسهم، لكنَّ محادثتنا توقَّفت حول استخدام كلمة «إنسان» ولم تُمضِ إلى أبعد من ذلك.

على أيِّ حال، كانت سيمون دو بوفوار نفسها هي التي قالت «طبيعة الإنسان هي ألا يكون له طبيعة»، وهي التي اختَرَعَت مفهوم النسوية عموماً، حتى لو أنَّها كانت تسمح لسارتر بضعفها قليلاً في الواقع، ليس صحيحاً تماماً أنَّ سارتر صَفَع دو بوفوار فهو لم يَكُن ضحكاً كفايةً ليقوم بذلك. لقد أفسحت المجال مؤقتاً لرغبة مفاجئة للقفز على عَرَبَةِ صِدَّةٍ مُثَقَلَةٍ بالأعباء، تُصِدِرُ صريراً، وخالية تماماً من الشير الذاتية المثيرة التي لم يُبحث فيها بشكلٍ جيد عن سارتر ودو بوفوار، الشير الذاتية التي تُزعم أنَّهما كانا في أحسن الأحوال يَغُضَّان رؤوس الدجاج ويركلان المازة، وفي أسوأ الأحوال أنَّهما كانا مُتعاونين مع النازيين.

إذا فالتيار الوجودي السائد هو ذلك التيار الفلجذ الفناهض للمثالية والميتافيزيقا. إنَّه ينظر إلى الجنس البشري بأنه يعيش في كونٍ غير مُبالٍ وخالٍ من المعنى بشكلٍ عبثي. كما أنَّ أي معنى يمكن العثور عليه في هذا العالم يجب أن يؤسسه كل شخص من داخل دائرة وجوده الفردي الخاص. الشخص الذي يفترض أنَّ معناه مُحدَّد مُسبَقاً وأنَّ هناك هدفاً أقصى للوجود البشري تمَّ إضفاؤه خارجياً بواسطة إله أو آلهة، سيكون مخدوعاً وجباناً في مواجهة الواقع. باختصار، إنَّه أحمقٌ وجاهلٌ يحتاج إلى أن يَنضُج ويصبح واقعياً.

كما أشرنا سابقاً، لن يؤيِّد جميع المفكرين الذين يحملون أوراق اعتماد وجودية كل وجهات النظر هذه، فالروائي الروسي الرائع، فيودور دوستويفسكي، على سبيل المثال، من الواضح أنَّه كان مفكراً وجودياً في كثيرٍ من النواحي، كما من الواضح أنَّه



-على غرار كيركجارد- لم يكن مُلجداً. الوجودية طيفٌ واسع جداً (كنيسة واسعة تضم الكثير من الآراء المتنوعة، وإن لم تكن مبنى قوطياً واسعاً) يضم مفكرين متدينين أمثال بول تيليش، ومارتن بوبر، وكارل بارت، وغابرييل مارسيل، ومفكرين لا دينيين مثل الروائي والكاتب المسرحي صمويل بيكيت. لقد وفّرث عليك عزيزي القارئ نطق هذه الأسماء لأنني لست متأكداً من أنني أعرف كيف ألفظها بشكلٍ صحيح تماماً. على أي حال، وباستثناء بيكيت، هم عبارة عن جماعة غامضة جداً خارج مجالات اللاهوت الجامعية، التي لا تقل عنهم غموضاً، لذلك لا داعي للقلق بشأنهم.

برناردو بيرتولوتشي، الفخرج الإيطالي الذي جعل مارلون براندو يفعل أشياء لا يمكن وصفها مع الزبدة في فيلم رقصة التانغو الأخيرة في باريس، يستكشف العديد من الموضوعات الوجودية في أفلامه، بينما يُعرّف الطبيب النفسي آر. د. لينغ الظروف العقلية للذهان والفصام من منظور وجودي. كتّب لينغ كتاباً رائعاً عن الفصام والذهان بعنوان *الذات المنقسمة: دراسة وجودية في العقل والجنون* / *The divided Self : An Existential Study in Sanity and Madness* . أنا أنصحك بقراءة هذا الكتاب لأنه بحلول الوقت الذي تنتهي من قراءته، ستشعر بالقلق من ظهور جميع الأعراض لديك. أنا فعلت ذلك، وحدث الأمر معي! يبدو أن لينغ قد ألف كتاب *الذات المنقسمة* كطريقة لتوليد المزيد من الوكلاء والمرضى. إن شكسبير الناضج صاحب المآسي الكبرى مثل هاملت والملك لير وكل تلك المسرحيات العظيمة، كان إنساناً وجودياً بعمق. ربما كان شكسبير هو من اختزَع الوجودية في النهاية. إن الوجودية، كطريقة لرؤية الحالة الإنسانية، كانت موجودة لفترة أقدم بكثير من المصطلح نفسه. رفض سارتر، أشهر الوجوديين على الإطلاق، هذا المصطلح في البداية، مُفضلاً مصطلح «فلسفة الوجود» أو الأنطولوجيا الظاهرية، لكنه لم يخجل أبداً من الترويج لنفسه كوجودي حقيقي في مواجهة القبول والإصرار الشعبين عليه.

قلت في مقدمتي إن معنى أن تكون وجودياً يتطلب منك قدرًا معينًا من الجهد. أن تصبح وجودياً ليس لضعاف العقول أو القلوب، أو الأشخاص الذين يستسلمون عند أول غمبة تواجههم. وكونك وصلت بالقراءة إلى هذا الحد فقد أثبت أنك لست من

النوع الذي يستسلم بسهولة. لقد دُلَّتْ بالتأكيد بعض العُقبات للوصول إلى هنا. لذا: أحسنت. إذا وَجَدْتَ هذا الثناء مُهينًا، كما يفعل معظم الوجوديين المُحتملين، أقول لك: «احمل عَتَاذَكَ أَيُّهَا الجندي، ما يزال أمامنا أميال حتى نصل إلى نهاية الطريق بأحماننا التي تُزِرُّ ثمانين رَطلًا». كما يقول مُشاة البحرية المُلكية البريطانية وفوج المظليين: «تذكر المسير الطويل عبر جُزُر فوكلاند». إذا لم تكن ضعيف الذهن أو القلب، فلن تحرق المراحل إذا أخبرتك أن هذا الفصل لم يقدم حتى الآن سوى لمحة عامة جدًا عن الوجودية، خلفيتها، ودرس تاريخي موجز عنها. نحن بحاجة للتعقق أكثر إلى حيث تزداد الأرض وعوزةً لنكتشف الأسباب الكامنة وراء التعاليم والوصايا التي تقدمها الوجودية، وما الذي تعنيه حقًا. لماذا تُدعي سيمون دو بوفوار، على سبيل المثال، بأن طبيعة الإنسان هي أنه بلا طبيعة، وماذا يعني القول إن الوعي ليس شيئًا في حد ذاته؟

Telegram:@mbooks90

على الرغم مما يقول نُقادها الأشد قسوةً، ولا أحد منهم يفهمها بشكل صحيح على أي حال، فإن الوجودية نظرية متماسكة إلى حد كبير تتفحور حول الحالة الإنسانية، ومتجذرة في أفضل تقاليد الفلسفة الغربية. وكل ذلك يعتمد أساسًا على نظرية طبيعة الوعي البشري التي يمكن إرجاعها إلى الفيلسوف الألماني اللامع إيمانويل كانط، وخليفته اللامع بالقدر نفسه، جورج فلهلم فريدريك هيغل. الوجودية في الواقع هي مجرد فرع أو تطوّر لنظرية فلسفية تسمى بالظاهراتية/الفيينومينولوجيا التي يمكن إرجاعها إلى هيغل أو كانط بالتأكيد. لا يوجد فيلسوف يعمل من فراغ، وكل فيلسوف مدينٌ بشيء ما لأسلافه. لذلك، عند البحث عن مصدر الفلسفة الظاهراتية، لا يمكننا توريط هيغل من دون توريط كانط معه. كما كان للفيلسوف الإسكتلندي ديفيد هيوم تأثير كبير على فلسفة كانط، وهكذا سوف نُغزق في ضباب الماضي البعيد. من الممكن بالتأكيد تحديد نوع الأفكار الظاهراتية عند هيوم.

على أي حال، إن النظرية الظاهراتية للوعي هي التي تدعم جميع الاقتراحات الأخرى التي تُطرحها الوجودية حول الزمان والحزبة والعلاقات الشخصية وسوء النية والأصالة وما إلى هنالك. ليس غريبًا إذن أن تكون نظرية الوعي هذه هي التي يجب أن نُصَّغها نُصبَ أعيننا. إنها نظرية رائعة وعميقة ومليئة بالمفارقات العُبتية

في البداية، ولكنها تصبح أكثر صدقًا وعمقًا كلما فكّرتُ فيها بشكلٍ أفضل. وفوق كل شيء، إنها المفتاح لفهم الفلسفة الوجودية. بمعنى ما، إنها وجودية. قُل ذلك لأي شخص يسألك في القرّة القادمة عن ماهية الوجودية: «الوجودية هي نظرية للوعي».

في الواقع، هناك الكثير من الأمور التي يُمكن أن تُندرج تحت مُسمى الوجودية. قد يعرف بعض الناس تلك الرسوم الكاريكاتورية والفلصقات والشارات والقمصان الفلّوثة التي تحمل وسم *Love is...* التي أسستها شركة كيم في الستينيات وما زالت مستمّرة حتى الآن. «الحب هو أن تشارك فُفازاتك»، «الحب هو المُطالبة بأن تُحب». والوسم الثاني حقيقةً هو لسارتر. فقد كتبه في العام 1943. لذلك ربّما أُرّ في سلسلة الوسوم والفلصقات الشهيرة لشركة كيم. الوجودية تشبه إلى حد ما وسم «الحب هو...». وهناك عدد غير قليل من العبارات التي تكمل بدقّة الجملة التي تبدأ بعبارة «الوجودية هي...»: «الوجودية هي نظرية عن الحالة الإنسانية»، «الوجودية ليست لأصحاب القلوب والعقول الضعيفة»، «الوجودية فلسفة ثقيلة»، و«الوجودية ليست تلك الفلسفة الثقيلة والصعبة إلى هذا الحد».

## الوجودية والوعي

إنّ العقل، أو ما يُفضّل معظم الفلاسفة الوجوديين تسميته بالوعي *Consciousness* ليس شيئًا. في الحقيقة، إنه لا شيء، أو بمعنى أدق، إنه لا شيء بذاته. هذا ادعاء كبير ومن المُزجّح أنه يبدو سخيفًا في البداية، لكن احتفظ بهذه الفكرة لأنها منطقية تمامًا عندما تعتاد عليها. كان سارتر مقتنعًا بأنّ الوعي ليس شيئًا بذاته لدرجة أنه أطلق على أعظم كتاب له عن الوجودية عنوان *الوجود والعدم* - والعدم الذي يشير إليه سارتر في العنوان هو الوعي. في الحقيقة، وعلى وجه الدقّة، أطلق سارتر على أعظم أعماله عنوان *L' Etre et le néant* ، والتي تُترجم حرفيًا «بالكينونة واللا-كينونة» لكنّ عنوان *الوجود والعدم* بات راسخًا بالإنكليزية - *Being and Nothingness* - هذا العنوان الغامض والفُلعز لدرجة أن الناشر لم يجرؤ على التلاعب به.

في محاولة لفهم القذهب القائل بأن الوعي لاشيء/عَدَم، أو لا-كينونة، عليك أن تبدأ بقبول أنه ليس كل ما يصفه كوئنا الفذهل هذا مصنوغًا من أشياء مادية أو ذرات أو أي يَكُن من القواد الفيزيائية التي تُكوّن الأشياء المادية في جوهرها على أصغر المستويات. على سبيل المثال، هل الزمان شيء فيزيائي؟ يمكنني قياس الزمان بساعة، بل حتى يمكننا القول إنه يمضي بشكلٍ سريعٍ أو بطيء، لكن لا يمكنني إدراك مقدار أو كمية منه، أو إدخال دَبّوس فيه. إنه حقيقي إلى حدٍ معقول لكنه ليس شيئًا ماديًا. ويمكن قول الشيء نفسه على ما يسمّى عادةً بالحالات الذهنية، كالاعتقاد أو الثرُقب أو القلق.

تلعب الأرقام أيضًا دورًا كبيرًا في حياتنا، ولكنها ليست أشياء مادية، أو ما يُسمّيه الفلاسفة «فيزيائية». يمكن للطفل أن يُمسك بيده قطعة بلاستيك خضراء على شكل رقم ثلاثة «3»، لكنه لا يحمل الرقم ثلاثة، فالثلاثة بحد ذاته ليس أخضر أو بلاستيكيًا. بالتأكيد هذا الشيء البلاستيكي الأخضر في يده الصغيرة ما هو إلا رمزٌ للفكرة المُجرّدة أو لمفهوم العدد ثلاثة، وهي الفكرة نفسها بالنسبة لجميع الكائنات المُفكّرة في أي مكان في الكون سواء كانت ترمزُ للرقم ثلاثة بـ الثلاثة، 3، أو  ويمكن قول الشيء نفسه على الرموز الرياضية الأخرى، مثل: +، -، =، وما إلى هنالك. لا تشير علامة = إلى شيء يسمّى «التكافؤ» يمكنك إمساكه بين يديك، بل تشير إلى وجود علاقة بين شيئين أو أكثر.

سأكتفي بهذا القدر من الأمثلة من الرياضيات لأنني لا أريد صرف تركيز القراء الذين لديهم نُفورٌ فطري من الرياضيات. قد تشعر بالارتياح لمعرفتك بأن الوجودية ليس لها علاقة بالرياضيات، وأنت بالتأكيد لا تحتاج لأن تكون ماهرًا في الرياضيات لكي تكونَ وجوديًا. كل ما أفعله بأمثلة الرياضيات هذه هو الإشارة إلى مجال شاسع وكامل من الواقع -عالم الرياضيات- غير المادي.

أحذية التمرين، وقوارب السحب، والشريط اللاصق هي أشياء مادية، في حين أن «التكافؤ» هو علاقة. سيُئل فيلسوف ذات مرّة عن أنواع الكيانات المختلفة الموجودة في العالم. قال: أشياء وعلاقات. ويصنّف الوعي بالتأكيد ضمن الفئة الثانية. إنه



علاقة وليس شيئًا ماديًا. أجاب فيلسوف آخر ظرّح عليه السؤال السابق نفسه: «أشياء ورجال». كان طالبًا سابقًا في مدرسة خاصة بالأولاد، وربما لم يكن يعرف الكثير من النساء، لكن فكرته بحّد ذاتها عن الـ«أشياء ورجال» توضّح النقطة الهامة جدًا وهي أنّ العالم يحتوي على أشياء من ناحية، وموضوعات أو وعي من ناحية أخرى.

سوف يُجادل بعض الأشخاص من أصحاب التفكير العلمي الذين يرغبون في تبسيط العالم بشكلٍ مُفرط واختزال كل شيء إلى سلوك جسيمات فيزيائية صغيرة، بأنّ الوعي هو حالة دماغية، إنّه عبارة عن ملايين من التفاعلات الكهروكيميائية التي تُجري في الدماغ. الآن، علينا أن نخطو هنا مع بعض الحذر. في خضمّ هذا الجدل حول الوعي، وأنّه ليس شيئًا بذاته، وأنّه علاقة، وغيّدم، لا يدّعي الوجوديون بأنّ الوعي موجود، أو يمكن أن يوجد، من دون دماغ. يجب أن يكون الوعي هو ما يُطلق عليه الوجوديون «بالفتّجسد». ربما قد يبدو الأمر مُؤملاً إلى حد ما، فهُم لا يقبلون فكرة الوعي العام والحز، وتجارب الخروج من الجسد، والأشباح وكل ما هنالك. يتطلّب الوعي دماغًا، وكما تشير أدلّة علم الأحياء بقوة، إذا قُمت بتدمير الدماغ فإنّك تُدمّر الوعي أيضًا.

ومع ذلك، هذا لا يعني أنّ الوعي هو مجرّد نشاط للدماغ، وأننا يمكن أن نُختزل الوعي إلى مجرّد نشاط دماغي. عندما ترى منطقة معينة من الخلايا العصبية مُضاءة ونشطة على أجهزة المسح الدماغي، فإنّك لا ترى أفكار الشخص وخيالاته، كل ما تعرفه هو أنّ هذه الخلايا العصبية تومض عندما يفكر في كعكة من الكريما ويرغب بها. وإذا تُعمّقت في دماغه فلن تجد أفكاره عن الجبال البعيدة أو حلمه بالسفر إلى هناك، وبالتأكيد لن تجد صورة صغيرة للجبال داخل جمجمته. كل ما ستجده هو كتلة دهنية رمادية متعرّجة تحت شبكة من الأوعية الدموية.

إنّ رغباته وتوقّعاته وأفكاره -مع أنّه لا يستطيع تكوينها من دون وجود دماغ داخل رأسه- ليست أشياء موجودة داخل رأسه فعليًا! إنّها جوانب من علاقته بالعالم. رغبته ليست مجرّد خلايا عصبية مُستعزّة X, Y, Z، لكنّها رغبة بكعكة الكريما

الموضوعة أمامه على الطاولة. وهكذا أفكاره عن الجبال. إذا كنت أفكر بالجبال، فأنا لا أنظر إلى صورة صغيرة للجبال موجودة داخل عقلي، داخل ما يُسمى عادةً بعين العقل، بل أنا أفكر بشكلٍ قصديٍّ بالجبال الموجودة في العالم. إذا كان لديّ أي حيس أو توقُّع فيما يتعلق بالجبال، فهذا لأنني أتوقُّع الذهاب إلى هناك. إذا كان التوقُّع مجرد حالة كيميائية في عقلي، عندها يمكنني أن أشعر بالتوقُّع من دون أن أتوقُّع أي شيء في الواقع، وهذا بالتأكيد أمرٌ مستحيل. «أتوقُّع أن يصل أخي إلى هنا في غضون خمس دقائق مع أنني أعلم أنه في الجانب الآخر من العالم الآن». ذلك غير منطقي أبداً، أليس كذلك؟ يشعر المرء بالتوقُّع لأنه يتوقُّع شيئاً ما. لذا، فإنَّ الرغبة هي رغبة في شيء، والأفكار هي أفكار عن شيء، والتوقُّع هو توقُّع لشيء، وما إلى ذلك.

هذه كلّها ظُرُق وأساليب مختلفة للقول بأنَّ الوعي لا يمكن اختزاله في حالات ذهنية للدماغ، وأنَّه ليس شيئاً بذاته، وأنَّه في الأساس علاقة بالعالم الذي يدركه ويُعاينه. وقد لَحُض علماء الظواهر -المجموعة الأوسع التي ينتمي إليها الوجوديون- كل هذا بمبدأ «الوعي هو وعي ب...». في ذلك الكتاب الكبير، *الوجود والعدم*، الذي يطلق عليه البعض تسمية الكتاب المقدَّس للوجودية، كتب سارتر: «إنَّ القول بأنَّ الوعي هو وعي بشيء ما، يعني أنه بالنسبة إلى الوعي لا يوجد أي شيء أو كائن خارج هذا الالتزام الدقيق ليكون حدساً كاشفاً لشيء ما»، [الوجود والعدم، ص17]. ويُعرِّف هذا الرأي القائل بأنَّ «الوعي هو وعي ب...» بنظرية القصدية *Intentionality*.

أول من فكر في نظرية القصد كان عالم النفس الألماني فرانتز برينتانو، وطوَّرها عالم ألماني آخر اسمه إدموند هوسرل. إنَّ الظاهراتية أو علم الظواهر يشبه فندقاً على البحر الأبيض المتوسط، يقطنه الكثير من الألمان، مع أنَّ هؤلاء الألمان أمضوا جُل وقتهم في غرفهم يكتبون المجلدات بدلاً من الجلوس عند المسبح والاسترخاء والاستمتاع بحمام الشمس. لم يكن هوسرل وجودياً بالمعنى الحرفي للكلمة، لكنَّ أفكاره عن الوعي كان لها تأثيرٌ كبيرٌ على اثنين من أكبر الوجوديين على الإطلاق هما: مارتن هايدغر، وجان بول سارتر. ومن المنصف القول إنَّ هوسرل كان له الأثر

الأكبر على سارتر. فعندما كان سارتر شابًا في العام 1933، انتقل إلى ألمانيا لعُدة أشهر لكي يدرس فلسفة هوسرل، وفي العام 1937 أَلَفَ كتابًا بعنوان *تعالِي الأنا* *The Transcendence of the Ego* وكزسه لتحليل فلسفة هوسرل العقلية. تُنصُ نظرية القصدية على أن الوعي قُصدي *intentional*، إنه يقصد دائمًا شيئًا ما، وهو موجود دائمًا من أجل شيء معين، ومتعلق دائمًا بشيء معين. حتى إن بعض الفلاسفة المعاصرين يُشيرون إلى قصدية الوعي على أنها «وَعِي الوَعِي»، أو «إدراك الوعي» *The aboutness of consciousness*. تمامًا كما الانعكاس في المرآة لا يتجاوز ما يعكسه، وهو لا شيء بذاته، كذلك الوعي لا يتجاوز ما يدور حوله أو يتوجّه نحوه أو يتعلّق به.

تشير نظرية القصدية إلى أنه نَظَرًا لأنّ الوعي يتعلّق دائمًا بشيء ما أو يدور حول شيء ما، ولا يتجاوز ذلك الشيء، فإنّ أي محاولة للتحقيق في الوعي تُؤدّي دائمًا وفورًا إلى التحقيق في أي شيء يتعلّق به الوعي أو يدور حوله. يسعى علماء الظواهر، بمن فيهم الوجوديون أنفسهم، إلى فهم الوعي من خلال التحقيق في الطريقة التي تظهر بها الظواهر المختلفة، والأشياء المقصودة المختلفة، للوعي. الكائن المقصود هو كل ما يدور حوله الوعي، سواء كان مُدرَكًا، أو مُتخَيَّلًا، أو يُعْتَقَد أو يُشعر به.

الحُب، على سبيل المثال، شيء مقصود، ظاهرة قصدية، أمام الوعي. لا وجود للحبّ بذاته بين ديفيد وفيكنتوريا بغض النظر عن الظروف، بل إنه شيء مقصود (في هذه الحالة شيء ما أو مفهوم نفسي مقصود) يتألف من سعادة ديفيد التي يشعر بها عندما يرى فيكتوريا، ومشاعر الرغبة في نفسه عندما يفكر بها، والمشاعر الإيجابية التي تُؤلدها في نفسه، ورغبته أو نيّته في مساعدة فيكتوريا وحمايتها وما إلى ذلك. هذه المظاهر ليست مظاهر الحبّ بذاته، بل هي الحبّ. لا وجود للحبّ بذاته متجاوزًا المظاهر المختلفة التي نصفها بشكلٍ جماعي على أنها حبّ ديفيد ليفيكتوريا.

الجسم المادي كائن/شيء مقصود أيضًا، إنه مجموعة من مظاهر الوعي. قد يبدو القلم من بعيد صغيرًا، أما عن قُرب فيبدو كبيرًا. وعند الدوران تظهر جوانب مختلفة

منه وتختفي أخرى. يظهر شكله على نحو مختلف مع تغيّر اتجاهاته، ويتغيّر لونه مع الضوء. ويُصدر صوتًا عند إعادته إلى المكتب. يمكن أن نقول عن القلم الأشياء نفسها التي قلناها عن الحب. لا وجود للقلم بذاته متجاوزًا المظاهر المتغيرة والمختلفة التي نَصِفها مُجْتَمَعَةً بأنها هذا القلم. لذلك، وفقًا لبرينتانو وهوسرل والعديد من فلاسفة الظاهراتية، فإنّ الأشياء في الحقيقة ما هي إلا مجموعات من الظواهر. يجب اختزال الأشياء إلى شكلها (مظهرها) حتّى يتمّ فهمها بشكلٍ صحيح.

الاستنتاج الفذهل الذي يمكننا استخلاصه من كل ذلك هو أنّ الظواهر، كافة أنواع الظواهر المختلفة للأشياء الماديّة وغير الماديّة التي يتألّف منها العالم، ما هي إلا مجموعات من المظاهر بالنسبة للوعي.

تُجدر الإشارة إلى موقف سارتر من هذا الأمر. فمن جانبه، يبدو أنّ سارتر يريد أحيانًا مقاومة الاستنتاج الفذهل في ما يتعلّق بمظاهر، بحجّة أنّه على الرغم من أنّ الظواهر تُظهر لنا، إلا أنّها موجودة كما يبدو بشكلٍ مُسْتَقِلٍ عَنَّا. فالكوب، على سبيل المثال، هو عبارة عن مجموعة من المظاهر المُحدّدة بالنسبة لنا، لكنّه موجودٌ هناك أيضًا -كونه كوبًا- بشكلٍ مستقلٍ تمامًا عن أيّ شخصٍ ينظر إليه أو يلمسه أو يشرب منه. ومع ذلك، فهو في كثيرٍ من الأحيان، أقلّ واقعيّةً في ما يتعلّق بالمظاهر، مُصرًا على أنّ المظاهر يجب أن تظهر أو تتجلّى أمام شخصٍ ما ليكون هناك واقعٌ على شكل مظاهر. وكما صرّح بوضوح في بداية كتابه *الوجود والعدم*: «وتبقى الظاهرة نسبيّة، لأنّ 'الظهور' يفترض في جوهره شخصًا يظهر له أو يتجلّى أمامه»، [الوجود والعدم، ص 2]. باختصار، الكواب موجودة بصفاتها أكوابًا فقط عندما تظهر لشخصٍ ما.

عندما يجادل سارتر على هذا النحو، فإنّه يُعتبر ما يُسمّى بـ«المثالي المُتعالى» بحسب أسلوب وتعبير الفيلسوف الألماني العظيم إيمانويل كانط. كان كانط بالنسبة للفلسفة مثل روما بالنسبة للجغرافيا، كل الطُرُق تؤدي إليه عاجلاً أو آجلاً. يجادل سارتر في عدّة مواقع من كتابه بأنّه عندما لا يكون الوعي موجودًا على الساحة، يكون هناك ما يمكن تسميته بالكينونة اللامتمايزة فقط. هذه الكينونة اللامتمايزة هي كما هي، وذلك كل ما يمكننا قوله عنها. ليس لها خصائص، ولا سمات، ولا صفات.



بل هي أكثر رِقَّةً وشفافيةً من تلفزيون وقت النهار. ليس لها ماضٍ أو مستقبل حتى. غالبًا ما يجادل الفلاسفة ما إذا كانت الشجرة التي تسقط في الغابة تُحدث ضوضاء أم لا عندما لا يوجد أحدٌ حولها ليسمع صوت سقوطها. حسنًا، إذا كان هناك كائن لا مُتمايز فقط عندما لا يكون هناك وعي حوله يعيه ويُدرکه، فعند غَدَم وجود ذلك الوَعي، لَن يكون هناك أية أشجار تسقط وتُحدث ضوضاء، لا وجود لأي شيءٍ فردي!

يُجادل سارتر بأنَّ الوجود اللامتمايز مُتمايز، وينقسم إلى ظواهر متميزة عن طريق الوعي. يقول إنَّ الوعي هو العَدَم أو النفي *negation* الذي يُدخِل نَفْيًا وسلْبًا ونَقْضًا وغِيَابًا في كل شيء أو في كيان لا مُتمايز إذا جازَ التعبير، ويفضله إلى ظواهر معيَّنة - هذا مختلف عن ذاك، وهذا ليس كذاك، وهذا مثل ذاك، وهنا ليس كهناك، وعندها ليس كالآن، وهكذا. في كتابٍ ممتازٍ مستخدم بكثرة بعنوان *استخدام سارتر / Using Sartre* ، يُلَخِّص البروفيسور غريغوري ماکولوتش، وهو مُدرِّس قديم لي، موقف سارتر على النحو التالي: «يبدو أنَّ سارتر مُلتزم بوجهة النظر القائلة بأنَّ العالم غير الواعي عبارة عن هُوَّة، وهو موجود بذاته، 'امتلاء'، 'وفرة'، كتلة لا مُتمايزة من الأشياء الشبيهة بالعصيدة التي تشكَّلت في هذا العالم المعروف من قبلنا»، [استخدام سارتر، ص 115]. نقطة جيِّدة أيَّها الأستاذ، ولكن بالمقارنة مع كائن سارتر اللامتمايز، فإنَّ العصيدة غنيَّة بشكلٍ إيجابي بالخصائص: أو بالمظاهر. من الواضح أنَّ هذه مواد أساسية إن لم تُكُن مُعقَّدة، لكنَّ النقطة الأساسية التي يجب استبعادها هي أنَّ سارتر، على غرار كانط، يقول إنَّ عالم الظواهر التي نُدرکها ما هو إلا تُوليفة لكل ما هو «موجود هناك» ونشاط الوعي على أي شيء «موجود هناك». نحن لَسنا مُجرَّد مراقبين سلبيين للعالم. العالم الذي نعرفه هو نتاج العلاقة القائمة بين الوعي والوجود. على حدِّ تعبير الفيلسوف اليوناني القديم بروتاغوراس «الإنسان هو مقياس جميع الأشياء».

قد تعتقد أننا قد انحرفنا كثيرًا عن الطريق المباشر إلى الكثير من التكهّنات الفلسفية الغامضة التي لا طائل منها. ربما تكون قد بدأت في التساؤل عن علاقة كل هذا الخوض في الشرح الفلسفي بالأجندة الرئيسية لتصبح وجوديًا. حسنًا، أولًا، لكي تصبح وجوديًا، عليك أن تعرف ما الوجودية، وهذا هو بالضبط ما تدور

حوله عندما يتعلّق الأمر بموضوع الوعي. والأهم من ذلك كلّه، أنه خلال إظهار أننا لسنا مجرد مراقبين سلبيين للعالم، وأننا مقياس كل الأشياء وما إلى ذلك، يوضّح لنا سارتر وبقية الوجوديين أنّ العالم، عالمنا، يخضع دائماً لتفسيرنا النشط. نحن نواجه باستمرار عالماً تميّزه وتحدّده الدوافع والنيات والمواقف التي نختار اتخاذها، والتقييمات التي نختار إجرائها. هذا لا يعني أنّ العالم هو أي شيء نرغب أن يكون، بعيداً ومنفصلاً عنه، ولكن هذا يعني أنّ هناك إحساساً حقيقياً في العالم لكل شخص يكون نتاجاً للموقف الذي يتعامل أو تتعامل معه. هذا الإدراك -أو هكذا ينبغي أن يكون- مُعزّزٌ بشكل كبير، وهذا التمكن يحتلّ رأس قائمة أولويات الفكر الوجودي.

كان هناك إعلان عن سيارة على التلفزيون يقول: «الثقة هي كل شيء»، وهذا نوع من الكليشيهات التي تراها في الملصقات التحفيزية في أماكن العمل وتهدف إلى إلهام الموظفين للانخراط أكثر في العمل وإنتاج المزيد من السلع. أنتم تعرفون ذلك النوع من الملصقات الذي يُصوّر فريق شدّ الحبل بكلمة «عقل جماعي» Team Work، أو ملصق أسماك السلمون التي تسبح بعكس التيار مع كلمة «مُثابرة». أو الرئيس جورج دبليو بوش مع عبارة «لا يُشترط أن تكون الأول في صفك لثصبح في صدارة العالم». قد يكون مُلصق «الثقة هي كل شيء» أشبه بالشير على حبل مَشدود، حيث يجب أن يُفكّر السائر على الحبل بإيجابية، وأن يُحافظ على ثقته وهدوئه وتوازنه، وإلا فسوف يسقط. إنّ الشخص الذي يختار أن يكون إيجابياً وواثقاً أو -على الأقل- يحاول بصدق أن يكون إيجابياً ومتوازناً، سيواجه عالماً مختلفاً تماماً عن الشخص الذي يختار أن يكون سلبيّاً وخجولاً.

\*\*\*

وفقاً لسارتر وغيره من الفلاسفة الوجوديين، إنّ الكينونة الفُتْمَايِزَة، أي عالم الظواهر المُتَنَوِّع والغني الذي نعيش فيه جميعاً، يتركز أو يقوم على الوعي، أو على الأقل، على الوعي والسلب والغياب الذي يُضفيه الوعي على الكينونة. بعبارة أخرى، لا تتركز الظواهر على الكينونة بل على النقص أو الغياب أو نفي الكينونة. تحدث حالات نفي الكينونة، على سبيل المثال، عندما يتمّ استجواب أو التشكيك في الكينونة.

وتتميز علاقة الوعي بالعالم إلى حد كبير بموقف استجواب أو تشكيك. هذا الموقف لا يتلخص بمجرد القدرة على الحكم بأن شيئاً ما ينقصه، بل تَوْقُّع دائم لاكتشاف نقص أو عَدَم/لا كينونة. إذا نُظِرَتْ لأرى ما إذا كانت كعكتي مخبوزة، مثلاً، فذلك لأنني أفترض أنه من الممكن ألا تُخبز حتى لو افترضنا وجود كعكات بصرف النظر عن الوعي بها، فإن الكعكة لا يمكن «خبزها» إلا بالنسبة لوعي يدرك شكل الكعكة المخبوزة. لا يَنْقُض الكعكة أن تُخبز بذاتها، بل تفتقر للخبز بالنسبة للوعي الذي لديه توقّعات ورغبات خاصة حولها.

يساعد المثال التالي عن جوزة البلوط وشجرة البلوط في توضيح فكرة الوجوديين عن النقص: جوزة البلوط بذاتها لا تفتقر لأي شيء، إنما هي ببساطة ما هي عليه. ومن أجل إدراكها كشجرة بلوط مُحْتَمَلَة في المستقبل، يجب الحكم عليها على خلفية شجر البلوط التي لم تصبح بعد. يعتمد معنى الجوزة على عَدَم وجود شجرة البلوط كنتك التي تفتقر إليها الجوزة حالياً. البلوط نفسه لا يفتقر إلى شجرة البلوط. وتفتقر الجوزة إلى شجرة البلوط فقط بالنسبة إلى الوعي القادر على القفز نحو الأمام في الزمن متجاوزاً جوزة البلوط باتجاه الكينونة غير المُتَكَوِّنة بعد، أو لا كينونة شجرة البلوط. إنَّ لا كينونة شجرة البلوط هي التي تعطي معنى لجوزة البلوط بالنسبة للوعي. وبالنسبة للوعي، إنَّ جوزة البلوط موجودة في سياق كينونة لا كينونة شجرة البلوط. وكظاهرة ذات معنى، تُفهم جوزة البلوط على أنها ما هي عليه بحكم ما ينقصها أو ما تفتقر إليه. يقدّم الوعي اللاكينونة، والتفي، والنقصان، والغياب، والافتقار، باستمرار إلى العالم من أجل فهمه والتصرف بشكل هادف وذو معنى داخله. يمكننا القول من الناحية الفئية، إن الظواهر لا تستند على الكينونة، بل على اللاكينونة، فهي تنشأ بالنسبة للوعي عندما يدخل الوعي نقضاً أو نفيًا معيّنًا يتخلل كينونة لا مُتمايزة تشبه العصيدة، ممّا يؤدي إلى أن تصبح كينونة مُتمايزة.

يمكننا أن نقول بعبارات أكثر واقعية، لا يفهم الموقف دائماً من حيث ما هو عليه، بل من نقيضه، أو مما ينقصه بالنسبة للشخص الذي يواجهه. الموقف بذاته هو امتلاء من الكينونة، إنّه لا يفتقر إلى شيء، لكنه ليس موقفاً بذاته على وجه التحديد لأنه يجب أن يكون موقفاً بالنسبة لأحد ما، موقفاً أو حالة لشخص ما. التواقص التي

تجعله موقفًا، والتي تمنحه إمكانيات مستقبلية وما إلى ذلك، تُعطى له من قِبَل الموضوع الذي تشكل الحالة موقفًا معينًا بالنسبة له.

يُفسَّر الشخص كل موقف وفقًا لرغباته وآماله وتوقعاته وظروفه ونياته. وكلُّ موقفٍ يواجهه الشخص يُفهم على أنه يفتقر -حاليًا- إلى شيء ما مرغوبٍ فيه، أو مُتوقَّع، أو مقصود. وكما قيل، إنَّ الموقف بذاته لا ينقصه شيء، إنَّه يفتقر للشيء، فقط، بالنسبة إلى الشخص صاحب الموقف. ما يفتقر إليه الموقف هو ما أفترقُ إليه أنا. إذا كان أحد إطارات سيارتي فارغًا من الهواء، فذلك يعني أنني أنا، وليس السيارة بذاتها، من أفترق لأربعة إطارات جيِّدة. والأهم من ذلك، إنَّ أغراضي هي التي تفتقر إلى وجود سيارة تعمل بشكلٍ جيِّد.

غالبًا ما يكون الوعي مُهيأً للعثور على شيء يفتقر إليه لأنَّ النقصان أمرٌ جوهري في صلب المعنى الحقيقي لكلِّ موقفٍ بالنسبة لأيِّ وعي. لهذا السبب، وفقًا للفلاسفة الوجوديين، لا يمكن أبدًا أن يَصِلَ الوعي، أو الشخص، إلى الرضا الكامل. سوف يفتقر الشخص دائمًا الموقف بما ينقصه بالنسبة له. إذا كان يطبخ، فإنَّ وجبته تفتقر إلى الظهو. إذا كان يأكل، فإنَّ وجبته ينقصها أن تُؤكل، إذا كان يشاهد فيلمًا وما زال في منتصفه، فإنَّ الفيلم يفتقر إلى النهاية حتى الآن، أي إنَّه لم يبلغ نهايته بعد. إذا كان الفيلم سيئًا ولم يعد يهتمُّ للنهاية، فإنَّ موقفه يفتقر للاهتمام. إذا كان مُتعبًا فإنه يفتقر إلى النوم (الثعب هو الافتقار إلى النوم). إذا كان قد استيقظ وكان مستعدًا ليومه فهو يفتقر إلى الأشياء التي يأمل في تحقيقها في ذلك اليوم، وما إلى ذلك.

عمومًا، يفتقر الإنسان دائمًا إلى المستقبل الذي يثَّجه نحوه باستمرار، المستقبل الذي يُضفي معنى على أفعاله الحالية، أما ما يتعدى ذلك فإنه يأمل غيبًا أن يتحقَّق ويتصالح مع نفسه. وفي التقدُّم إلى الأمام، فإنَّ المسير اللانهائي للزمن، نحو مستقبلٍ مفقودٍ لم يَجُنْ بعد في الوقت الحاضر، وهو مستقبلٌ غائب في الماضي، وبمجرَّد بلوغه يتحوَّل إلى ماضٍ له مستقبله الغائب. يبدو أنَّ المسيرة اللانهائية للزمن تخذعنا باستمرارٍ وُثراوغ حقيقتنا وما نحن عليه، وتُمنعنا من التوَّخُّد مع أنفسنا، ولكن في الحقيقة، ما نحن عليه هو هذه المسيرة اللانهائية فُذما في الزمن،



نحن كائنات لا يمكن أن تشكل وحدة مع ذاتها أبدًا.

لعل هذه الحقيقة هي من أقسى الحقائق الوجودية المتعلقة بالحالة الإنسانية على الإطلاق. سوف نشعر دائمًا بنوع من النقصان، وعدم الاكتمال، وربما القل، وعدم الرضا. سوف ننتظر لتصبح بعض المشكلات الحالية العالقة جزءًا من الماضي، وسنبحث دائمًا عن الاكتمال في المستقبل حتى يصبح الموت هو الإمكانية المحتملة والمتبقية الوحيدة. هذا ليس بالشيء السيئ قطعًا، بل هكذا تسير الأمور في الحقيقة، لذلك سيكون من الخطأ أن نستسلم للاكتئاب، مع أن الكثيرين من الناس يقعون فيه. الوجودي الحقيقي لا يقع في فخ الاكتئاب، إنما يقول أو تقول: «هذا هو الحال دائمًا، هذا هو واقع الحياة. لن أبالي. بل سأسعى لتحقيق أقصى إمكانياتي في الحياة، رحلتي المحتومة إلى اللامكان: حريتي».

ترتبط ظاهرة الافتقار/الغياب الوجودي ارتباطًا وثيقًا بظاهرة النقص الوجودي. يصف سارتر -الذي غالبًا ما كان يأتي بأفضل الأمثلة- تجربته عندما اكتشف أن صديقه بيير غائب عن المقهى حيث رُتّب لمقابلته [الوجود والغدم، ص 33-35]. «عندما أدخل هذا المقهى للبحث عن بيير، تتشكل هناك تركيبة منتظمة لجميع الأشياء الموجودة في المقهى، التي يُمنح على خلفيتها بيير إمكانية الظهور، [الوجود والغدم، ص 33]. إن بيير، كما توقع سارتر، غائب وجوديًا. وهذا الغياب الوجودي يختلف عن الغياب الشكلي الفجّرد الذي ما هو إلا فكرة مجردة «ولنفتون ليس في هذا المقهى، بول فاليري لم يغد هنا، وما إلى ذلك»، [الوجود والغدم، ص 34].

هذا التمييز بين الغياب الوجودي والغياب الشكلي يؤكد على أن اللاكينونة لا تنشأ ببساطة من خلال الأحكام الصادرة عن الوعي بعد مواجهة العالم، إنما هذه اللاكينونة من طبيعة العالم ذاته كما هو حال الوعي. إن غياب بيير عن المقهى، على عكس غياب الملكة فيكتوريا، ليس مجرد فكرة. غيابه حدث فعلي في المقهى يميز المقهى بأنه المكان الذي يغيب عنه بيير. فكّر بذلك في المرّة القادمة التي تكون فيها في ستاريكس تنتظر مجيء صديقك، وقد ترغب أيضًا في التفكير بالسبب الذي يدفع

الوجوديين لينتهي بهم الأمر في المقاهي.

يمكن أن يكون عالم الإنسان بكامله في وضع النفي، بمعنى عدم كونه حضورًا لما هو مرغوب به. إنَّ التعاسة الناجمة عن فقدان شخص ما أو شيء ما متجذرة في هذا النفي للعالم. إنَّ البؤس النفسي نتيجة الانسحاب من عقارٍ ما، على سبيل المثال، لا يكمن في فقدان أو خسارة المتعة التي يمنحها هذا العقار، بل في كون العالم بأسره مختزلًا إلى خلفية مملّة وبائسة غير ذات أهمية، أو لا قيمة لها باستثناء كونها تأكيدًا دائمًا على غياب العقار. لا شيء يثير أو يحفز القدمن الذي يعاني من أعراض الانسحاب إلا غياب ثبات الدافع والمحفز. حتى الأشياء التي لا ترتبط بشكل مباشر بثباتها تُحيل القدمن إلى مصدر للثبات لأنَّهما ليسا مصدر الثبات ببساطة. عالم القدمن بكامله لا يُختزل إلى هيرويين وكوكائين أو كحول أو نيكوتين أو قهوة، أو شوكولا، أو القفز الحُر، أو المقامرة عن طريق الإنترنت، أو أيّ كان مصدره الشخصي للثبات.

### الزمانية

يَكفُرُ الزمان، أو الزمانية *Temporality*، في خلفية الكثير مما قلناه حتى الآن. من المفيد إلقاء نظرة فاحصة على ما يقوله علماء الظاهراتية والوجود عن الزمانية، حيث إنَّ الفهم الصحيح للزمان وما يسقى بزمانية الوعي *Temporality of Consciousness* هو المفتاح الأساسي لفهم الفلسفة الوجودية الكاملة للحياة والكون وكل شيء.

عندما يأخذ شخص نَفْسًا عميقًا ويواجه التحدي الضعب المُثقل في قراءة كتاب الوجود والعدم لسارتر -الُفعايل الفلسفي للسباحة عبر القناة الإنكليزية التي تُفرض ضغوطًا أكبر بكثير على الدماغ- كثيرًا ما يواجه المفارقة التي تستمر في الظهور وبأشكال مختلفة: كينونة الوعي ليس أن يكون ما هو، وأن يكون ما ليس هو، أي عكسه، نفيه. ويقول سارتر نفسه: «الوعي ليس في وجود موجودات بذاتها، بل في عدم وجود غيرها»، [الوجود والعدم، ص 86]. كثيرون من الناس، بما في ذلك الفلاسفة المبتدئون، يشعرون بالضمة والغضب من هذا التعارض، وهذا الارتحال

الواضح إلى الأقصى، سوف يدفعهم إلى رمي الكتاب غالبًا من دون أن يقربوه مرّة أخرى أبدًا، ويُفوّتون على أنفسهم كل الأفكار الرائعة التي وُردت فيه. طبعًا قد يبدو هذا التعارض سخيفًا في الظاهر، كما هو حال جميع المفارقات. كيف يمكن لشيء أن يكون ما هو، وما ليس هو؟

حسنًا، لقد رأينا سابقًا أن الوعي ليس شيئًا بذاته، وأنه موجودٌ ليس كشيء، بل كعلاقة مع العالم. إذًا، لقد قبلنا بالفعل فكرة وجود الوعي كعلاقة بشيء ليس هو؛ بكونه قائمًا على كينونته المفترضة لما ليس هو. ومع ذلك، إنَّ أفضل طريقة لفهم معنى مفارقة الوعي هي عن طريق التفكير فيه من منظور المرور المستمر للزمن، وهو أمر نعرفه جميعنا جيدًا.

الوعي ليس موجودًا داخل الزمن كشيء يتحرك فيه ويتقدّم معه بكل ساعة أو يوم يَمُرُّ، إنّه، كما يقول الوجوديون، وُقُتي، زَماني، بشكل أساسي. وهذا يعني أن ماضيه لم يَعدْ، ومُستقبله لم يَحْضُرْ بعد. إنّه في حركة زمنية ثابتة بعيدًا عن ماضيه باتجاه مستقبله، وبهذا المعنى لا وجود لما يمكن أن نطلق عليه لحظة «الحاضر». لا ينتقل الوعي من لحظة حاضرة إلى أخرى. إنَّ الحاضر بالنسبة للوعي هو وجوده بالنسبة للعالم ككائن يتدفّق باستمرار إلى الأمام في الزمن فقط. يشير الوجوديون إلى هذه الحركة الزمانية الثابتة للوعي على أنها تجاوز زمني أو تعالٍ زمني أو رحلة زمنية. الوعي يتخطى باستمرار، ويتجاوز، ويهرب مما هو -أو ما كان هو- نحو المستقبل الذي يهدف إليه. تلك هي مفارقة سارتر للوعي مرّة أخرى مع إضافة بعض المكونات الزمانية ونأمل أن يصبح الأمر أكثر منطقيّة هذه المرّة: إنَّ كينونة الوعي ليس أن يكون ما هو (ماضيه) وأن يكون ما ليس هو (مستقبله). يقول سارتر نفسه: «في الوقت الحاضر، إنّه [الوعي] ليس ما هو عليه [الماضي]، وليس ما ليس هو عليه [المستقبل]»، [الوجود والعدم، ص 146].

إنَّ الأبعاد الثلاثة للزمن التي نعرفها جميعًا -الماضي والحاضر والمستقبل- ليست منفصلة حقًا، أو مستقلة عن بعضها. كل بُعد من هذه الأبعاد له حقيقته أو معناه ضمن سياق البُعدين الآخرين. ما بات الآن ماضي الإنسان كان مستقبله الذي يسير

نحوه. في يوم الجمعة لم تكن رحلة ركوب الدراجات التي حُظّطت لها يوم السبت قد حدثت بعد. وبمجرد عودتي إلى المنزل من الرحلة صار الحدث (لم-يُعد). «ليس-بعد» أصبح «لم-يُعد» حتى إن سارتر يصرُّ على أنه من الأدقّ الإشارة إلى الماضي على أنه ماضٍ-مستقبل. ما هو الآن ماضي كان في وقت ما مستقبلي. وبالمثل، فإن ما يحدث في مستقبلي، إذا حدث، سيصبح بلا شك جزءًا من ماضي، والأدقّ الإشارة إلى مستقبلي على أنه مستقبل-ماضٍ.

بالنسبة للحاضر، لقد رأينا بالفعل أنه ليس لحظة ثابتة - إذ لا وجود للحظات ثابتة بالنسبة للوعي. الحاضر هو ببساطة حضور الوعي بالنسبة للعالم ككينونة تتجاوز الماضي وتسير نحو المستقبل. بعبارة أخرى، لا يوجد الوعي أبدًا في الزمن الحاضر، إنه حاضر فقط (له حضور) ككينونة في حالة تقدّم مستمرّ نحو المستقبل. مثل شيء متحرّك، الوعي لا يوجد أبدًا لا هنا ولا هناك. إن الاعتقاد بأنّ الوعي يمكن إسقاطه فعلاً على الحاضر يعني افتراض إمكانية تجميد الزمن. لم يُعدّ الوعي باستمرار حيث كان ولم يُعدّ حيث يكون.

إنّ الادعاء الفذهل الذي يزعمه الظاهراتيون والفلاسفة الوجوديون حول الزمن هو أنه لا يوجد شيء أبعد عن الوعي من الزمن. إنّ الوعي هو الذي يجلب الزمن إلى العالم، والوعي هو الذي يجعل العالم زمنيًا. عندما تكسر الكوب، هناك الكثير من الأشياء التي كانت موجودة قبل أن يُكسر الكوب، لكن الكوب اختفى. الشظايا المكسورة نفسها لا تتذكر وجود الكوب، الوعي وحده فقط يمكنه ذلك. الكوب المكسور موجود فقط بالنسبة للوعي، الشظايا لها ماضٍ شبيه بالكوب فقط بالنسبة للوعي. إذا كان هناك شيء ما لا يشكل شيئًا إلا بالنسبة للوعي، عندها لن يكون لأي شيء ماضٍ إلا بالنسبة للوعي، و فقط أمام مرآة الوعي يمكن تدمير أي شيء. يمكن قول الشيء نفسه تقريبًا عن المستقبل. لا تعرف النار أنّ مستقبلها هو أن تتحوّل إلى كومة من الرماد، فقط الوعي يمكنه معرفة أنّ مستقبل النار كومة من الرماد، وهو يشبه القول بأنّ مستقبل النار ككومة رماد موجود فقط بالنسبة للوعي.

بطبيعة الحال، إنّ القول بعَدَم وجود زمن مستقل عن الوعي لا يعني بالضرورة



القول بعدم وجود عمليات صيرورة في هذا العالم منفصلة عن الوعي، وأنه من دون وعي لا شيء يأتي إلى الوجود أو يختفي منه، ينمو أو يحترق. هذا القول يعني ببساطة أنه من دون وعي، لا يوجد إدراك لعمليات الصيرورة والنمو والانحلال والدمار، ولا يوجد أي فكرة عن الماضي أو المستقبل بالنسبة لأي حاضر.

دعونا نعود إلى جوزة البلوط مرةً أخرى - لم تكبر كثيرًا منذ آخر مرة تحدثنا عنها، ولا يزال من الممكن تصنيفها على أنها جوزة بلوط. ونظرًا لأنها بذاتها بعيدة عن كونها مُدرّكة عبر وعي أي شخص، فإنّ الجوزة في طور التحول إلى شجرة بلوط. ومع ذلك فهي لا تهدف إلى أن تصبح شجرة بلوط. إلا إذا كنت مُخطئًا جدًا وكان ما يحدث في القصص الخيالية أمرًا حقيقيًا، فإنّ جوزة البلوط الصغيرة لن تدفن نفسها في أرض خصبة وتقول لنفسها: «هيا أيتها الجوزة الصغيرة، ابذلي جهدك، يجب أن تتحوّلي إلى شجرة بلوط كبيرة مثل أمي العجوز الشائكة». إنها لا تُسقط نفسها نحو أي هدف مستقبلي وليس لديها أي نية مستقبلية حيث تتعرّف على نفسها بأنها شيء يفترق إلى ذاته حاليًا كشجرة بلوط. ونظرًا لأنّ شجرة البلوط ليست مشروعًا بالنسبة للجوزة، وبالتأكيد ليست مشروعًا واعيًا، يضح عندئذ القول إنّ جوزة البلوط ليس لها مستقبل. فالوعي وحده فقط يفهم أنّ هذه الجوزة لم تصبح شجرة بلوط بعد، بل ستصبح كذلك في المستقبل.

إذا فهمنا مقولة غدم وجود زمن مستقل عن الوعي بهذه الطريقة، يصبح الأمر منطقيًا ومعقولًا على عكس ما بدا عليه في البداية. وبالشكل نفسه، إنّ القول بعدم وجود زمن مستقل عن الوعي لا يعادل القول بأنّ لا شيء يحدث باستقلال عن الوعي. إنّما يُعادل ذلك القول بأنه، بعيدًا عن الوعي، يصبح العالم كما هو بذاته حاليًا من خصائص الـ«لم-يغد» والـ«ليس-بعد».

كل ما قلناه عن الزمن يصف كيف يبدو الأمر بالنسبة لكل شخص في العالم، ويصف حراجه حالتنا الإنسانية المحتومة والفقيرة لنا. ليس أقلها أنه يكشف عن سبب شعور الناس بغدم الرضا، وسبب شعورهم الدائم بالنقص وافتقارهم لشيء ما. هناك شيء ما ينقصهم دائمًا، ألا وهو المستقبل. لا يُرضينا المستقبل أبدًا ولا يساعدنا

على الإمتلاء بشكلٍ كاملٍ لأننا ما إن نتحقق نوايانا وتطلّعاتنا المستقبلية حتى تتحوّل مباشرةً إلى جزءٍ من ماضينا، لتصبح مستقبلاً-ماضياً علينا أن نُنظِّقَ على أساسه نحو مستقبلٍ جديدٍ.

تقول الوجودية إننا لكي نكون متصالحين مع أنفسنا منذ البداية، يجب أن نكون ما نحن عليه، على طبيعتنا، بدلاً من السعي الدائم لنكون، بمعنى: لتحقيق حالة مستقبلية من الاكتمال التام حيث لا نعود نفتقر معها لأي شيء. لكننا لن نُصلَ أبداً إلى هذه الحالة الإلهية المُكتملة من الرضا التام عن الذات لأننا لن نُبلِّغَ المستقبل أبداً. غداً، سَتُقَدِّمُ البيرة المُجانية في جميع الحانات. لكن، وكما يعلم أقلُّ الناس تفكيراً فلسفياً، فإنَّ الغدَ قد لا يأتي أبداً. إلى جانب ذلك، الأمس مجرد ذكرى، حتى وإن كانت له نتائج ما زالت تطاردنا حتى الآن.

هل هذا مدعاةٌ لليأس والتذم؟ حسناً، لا ينبغي أن يكون كذلك، ليس من وجهة نظر الفلسفة الوجودية على الأقل. بالنسبة للوجودية، إنها الطريقة التي تسير عليها الأمور فحسب، وذلك هو الثمن الذي تُدفعه مقابل وجودك ككائنٍ واعٍ ومُدركٍ. فَمَنْ غير المُمكن على أية حال أن يكونَ المرءَ واعياً من دون أن يكونَ زمانياً، أو في-الزَّمان، أو من دون أن يندفع بسرعة عبر الزَّمنِ وكأنه شاحنة تعطلت مكابحها. لا يمكننا تصوُّر الوعي سوى أنه شيء زمني. في الحقيقة، ونظراً لأنني كنتُ أكثر من مجرد ومضة، فإنَّ الزمن والوعي هما الشيء نفسه تقريباً.

توصي الوجودية بتقبُّل الحياة ومواجهتها بشجاعة، والاستفادة منها إلى أقصى حدٍّ ممكن. فهي تنصحكم ببناء حياتكم على أساسٍ راسخٍ من حقائق قاسية وغير مريحة، لا على رمال متحرّكة من أوهام ضبابية وناعمة. وربما من المفارقات أنَّ هناك أيضاً اقتراحاً بأنَّ الناس سيكونون أكثر سعادةً ورضاً نسبياً إذا قبلوا حقيقة ما تنطوي عليه الرحلة السريعة للوعي عبر الزمن اللامتناهي نحو المستقبل، أي إنه من الغريب -من ناحية الحالة الإنسانية- أن يكون الإنسان راضياً وسعيداً تماماً لفترة من الزمن. وإذا ما تقبَّل البشر، بصدق، حقيقة الشرط الإنساني هذه، وعبَّروا عنها، فإنهم سيتوقَّفون عن السعي وراء تحقيق الذات الكامل، والسعادة الفُصوى، أو على الأقل،

سيصبحون أقل عرضة للخيبات بكثير، وأكثر هدوءًا ولديهم نظرة فلسفية أكثر حول الحياة عندما لا يُحققون الكمال المُطلق أو السعادة القصوى. توفر الوجودية رضى من النوع الزواقي من خلال قبول حتمية القدر البائس والمعاناة.

إن النتيجة الأكثر أهمية للنظرية القائلة بأن الوعي هو في الأساس زمني ومؤقت تتعلق بالحرية. ولأن الوعي زمني أساسًا، فهو حر أيضًا. وسأطرق إلى تفاصيل هذا الادعاء لاحقًا عندما أتناول موضوع الحرية والمسؤولية. ولكن النقطة الأساسية التي ينبغي وضعها في الاعتبار حاليًا هي أننا أحرار على وجه التحديد لأننا لسنا ثابتين في اللحظة الحاضرة. فقط الكائن الزمني/المؤقت يمكنه أن يكون حرًا، لأنه لكي تكون حرًا يعني أن يكون لديك كل الإمكانيات والبدائل الحقيقية المتاحة في المستقبل. نحن إمكانياتنا المستقبلية، وتتمثل حريتنا في أن نكون أحرارًا نحو-المستقبل. وسنتحدث عن موضوع الحرية لاحقًا.

في الوقت الحالي، نحتاج للنظر إلى حقيقة وجودية أخرى جوهرية عن الحالة الإنسانية أو الشرط الإنساني، ألا وهي وجود الآخرين. بتعبير أدق، نحتاج إلى التحقق مما يسميه كل من سارتر وبوفوار وغيرهما من الفلاسفة الوجوديين وجودنا/أو كينونتنا من أجل الآخرين.

### الوجود-من-أجل-الآخر

كل واحد منا هو ما يطلق عليه سارتر وعصبته بالكائن لذاته *Being-for-it self*. البشر لا يدركون العالم فقط، بل هم واعون لأنفسهم على أنهم يدركون العالم. هذا الوعي الذاتي -أو التأمل الذاتي- سمة مميزة للبشر. أما القرود والدلافين والأخطبوط (الفخيف) فلا يملكون مثل هذه السمة المميزة. كل إنسان هو كائن-لأجل-ذاته أو ذاتها. مهما كان الشخص مُضللًا فإنه يشعر بأنه يعرف نفسه، فهو مقياس ذاته، وهو القاضي وهيئة المحلفين لأفكاره وتصرّفاته. إنه يختبر نفسه بحرية، كأنه يخلق نفسه لحظة بلحظة عبر الأشياء التي يختار فعلها أو الطرق التي يختار سلوكها. إنه يسمو فوق العالم -أو يتجاوزة- بطريقة شبه إلهية كما لو أن العالم موجود له وحده، ومن أجله؛ إن العالم صدقته وملعبه. لكن هذا كثير بالنسبة لكائن-لذاته. الكائن-لذاته، كما

قد تُخَفَّنون بالفعل، ما هو إلا نصف الصورة.

نادراً ما يكون الناس وحيدين حقاً، خاصةً في هذه الأيام التي يخرج فيها سكان العالم عن السيطرة، ويتزاحمون في كل مكان. كل شخص يواجه باستمرار أشخاصاً آخرين «موجودين» ليس فقط بصفاتهم/أشياء في عالمه، بل كأشخاص يُعَينونهُ ويَروُّنهُ ويَحكمون عليه ويختزلون كينونته إلى مجرد شيءٍ داخل عالمهم. أن تكون شيئاً في عالم الآخرين، وأن تكون من-أجل-الآخرين، أن تكون شيئاً بالنسبة لهم، معناه أن تكون من-أجل-الآخرين، أو من-أجل-الغير، أن تكون عرضةً للسخرية والاستخفاف من قِبَل الآخرين، هذا هو معنى الوجود-من-أجل-الآخرين.

بالمناسبة، «الآخر» مصطلح وجودي متخيل يشير إلى شخص آخر، خاصةً الشخص الذي يُعَينني، وَيَنظر إليّ، وَيَرائي، ولديه أحكام عني تضعني في مكاني بالعالم. كما قد تظنّ، مصطلح «الآخر» ظنّاً وَرَئان. لا أحد يعود من المدينة قائلاً: «مرحباً عزيزتي، لقد قابلت الكثيرين من الآخرين بينما كنت أتسوق». وتوخيًا للإنصاف، يتيح هذا المصطلح سهولة التفسير عند مناقشة الجوانب المختلفة لظاهرة الكائن-من-أجل-الآخرين، أو الوجود-من-أجل-الغير، والثفاعل المُعقّد بين الموضوعية والذاتية الذي يحدث عندما يلتقي هذا الإنسان بذاك في القتجر أو الفئزّه، أو أثناء السير عبر الجبال، أو أيّ مكانٍ آخر.

من أجل فهم أفضل لمعنى الوجود-من-أجل-الآخرين والعلاقة بين الذات والموضوع عندما يظهر الآخر على المشهد تأمل المثال التالي:

رَجُلٌ يَدعى جون كان يمشي وحده في البريّة عبر وادٍ جميلٍ قرب نهرٍ جارٍ يَشربُ ماءً نقيّاً في الهواء المنعش والمناظر الخّالِبة ويشعر بأنّه سيّدُ كلِّ ما تقع عليه عيناه. فهو مجرّد كائنٍ شبه إلهي يتسيّد على الجبال والصخور والأنهار والبحيرات، وعلى كل شجرة وزهرة وورقة عشب. شعر جون بأنّه في وسط العالم، وأنّ كل شيء مُرتّب من أجله وحده، وأنّه موجود فقط من خلال زاوية رؤيته. فجأةً، نظر جون إلى صخرة عالية، ورأى شخصاً غريباً فوقها يسير من بعيدٍ في الوادي باتجاهه. بزعبٍ شديد، وخيبة أملٍ عميقة، وغَيْظٍ، يُدرك جون أنّه ليس مركز العالم، ويُدرك ما يمثّله



له ذلك الآخر المخيف. وعلى الرغم من أن الآخر لم يَزْ جون بعد، إلا أن مجرّد وجوده، كذات أخرى، يترك تأثيره فوزًا على حالة جون. إن ظهور الآخر يدل على تفكك العالم وتخلّله من وجهة نظر جون. إن الوضع العام برمته، الذي كان على جون أن يُقيّمه ويحكّم عليه كما يشاء، يحتوي الآن على مصدرٍ جديدٍ للأحكام والقيم لا تخضه وغير صادرة عنه. لقد كان (جون) مركز العالم. لكنّه الآن باثٌ مطروذاً من مركزه من قبل الآخر الذي ظهَرَ فجأةً وحزّمه من مركزية وجوده. لقد تمّ بذلك إعادة توجيه العالم نحو الآخر، والمعاني غير المعروفة لجون باتت تتدفّق باتجاه الآخر.

والآخر، على حدّ تعبير سارتر الشهير، عبارة عن حفرة تصريف يتدفّق فيها عالم جون. فبمجرّد ظهور الآخر يُمنع جون من لعب دور الإله. لقد توفّف عن كونه الحكم الأساسي المركزي والوحيد في جميع ما يرصده لأنّ مصدرًا جديدًا لإعادة التقييم ظهر في مسرح الحوادث ليسرق عالمه منه، ومعه جنونه الرائع الشبيه بالإله. فالبرية التي يلتقي فيها إنسانٌ وحيد بشخصٍ آخر يمكن بالتأكيد أن تُشعره بأنّها أكثر اكتظاظًا وازدحامًا من شارع مُزدحم.

لَمْ يَزْ الآخر (جون) بعد على الرغم من أنّه حفرة تصريف في عالم جون، كما أنّه يشكل تهديدًا كبيرًا لمركزية جون، إلا أنّه لا يزال شيئًا في عالم جون. لكنّ الآخر يصعد الوادي، وما هي إلا مسألة وقت قبل أن يَزِي جون ويصبح هو نفسه شيئًا في عالمه. يقترب منه الآخر وشرعان ما سيَرى جون أنّ الآخر يراه ويُعاينه. وعندما يعرف أنّه مرئي ومراقب، يُداهم جون شعورٌ بعَدَم الارتياح ويُدرك نفسه كشيء، من الملابس التي عليه والطريقة التي يرتديها بها، ومن الطريقة التي يمشي بها، وتعابير وجهه. بينما يقترب من الآخر يُدَقّق في ملامحه، ويبتسم ابتسامة مائعة، ويتجهّز لإنقاذ ذلك الترحيب المُحرج بالغريب الذي لا ينطوي على أيّ تهديد، والحديث المُبتذل عن الطقس الذي يتبادلّه الغُرباء في ما بينهم، ويشعرون بأنهم مجبرون على تبادله عند مرورهم في اللامكان. كما أنّ الآخر، والذي قد يدعى جون أيضًا، يفعل الأمر نفسه.

يشعر جون بالراحة عندما يتخطى الآخر، ويُدرك نفسه بصفته كائنًا أقلّ غرابةً.

فَبَعْدَ أَنْ تُحَزَّرَ مِنَ النَّظَرَةِ التَّمَلُّكِيَّةِ لِلآخِرِ، يَبْدَأُ فِي الاسْتِرْحَاءِ وَيَعُودُ إِلَى الْبَرِّيَّةِ. فَقَرِيبًا سَيَدُورُ الْآخِرُ حَوْلَ الصَّخْرَةِ الْكَبِيرَةِ وَيَخْتْفِي تَمَامًا، وَسَيَعْدُو الْعَالَمَ مَرَّةً أُخْرَى مَمْلَكَةَ (جُون) وَحْدَهُ.

حَتَّى عِنْدَمَا يَكُونُ الْفَرْدُ وَحِيدًا، عَلَى بُعْدِ كِيلُومِتْرَاتٍ مِنَ الْفَخَلَاتِ التِّجَارِيَّةِ؛ عَلَى بَعْدِ كِيلُومِتْرَاتٍ مِنْ أَيِّ مَكَانٍ، أَوْ مِنْ أَيِّ شَخْصٍ، فَمِنْ الْمُرْجُحِ أَنْ يَكُونَ فِي ذَهْنِهِ أَشْخَاصٌ آخَرُونَ. وَحَتَّى لَوْ لَمْ يَكُنْ، عَلَى عَكْسِ غَالِبِيَّتِنَا، مَذْعُورًا بِشَكْلِ خَاصٍ، فَقَدْ يُبْثَلِي بِالْأَحْكَامِ الْفَعْلِيَّةِ وَالْمَتَخَيَّلَةِ الصَّادِرَةِ عَنِ الْآخَرِينَ، مِنْ دُونِ أَنْ يَسْتَطِيعَ الْكَفَّ عَنِ التَّفْكِيرِ فِي مَا يَرَاهُ الْآخَرُونَ فِيهِ وَيَعْتَقِدُونَهُ عَنْهُ، أَوْ فِي الْأُمُورِ غَيْرِ الْإِنْتِقَةِ الَّتِي قَالَهَا فِي اجْتِمَاعِ الْمَوْظُفِّينَ، أَوْ التَّصَرُّفَاتِ الْغَيْبِيَّةِ الَّتِي فَعَّلَهَا خِلَالَ حَفْلَةِ الْمَكْتَبِ. وَفِي خِضْمِ حَرْجِهِ لَا يَسْعَهُ سِوَى التَّفْكِيرِ بِأَنَّ الْآخِرَ قَدْ أَمْسَكَ، بِطَرِيقَةٍ مَا، بِجِزْءٍ مِنْهُ وَحَاضِرَهُ وَنَالَ مِنْهُ لِيَجْعَلَهُ شَيْئًا يَشْعُرُ بِأَنَّهُ لَيْسَ كَمَا هُوَ، شَيْئًا لَا يَرِيدُ أَنْ يَعْتَرِفَ بِهِ أَوْ يَشْفِرَ بِالمَسْئُولِيَّةِ عَنْهُ. وَرَغْبًا عَنِ إِرَادَتِهِ، وَخِلَافًا لِحَزِينَتِهِ وَتَعَالِي وَعِيهِ الْبَهِيحِ، يُجْبِرُهُ النَّاسُ عَلَى أَنْ يَكُونَ مَا هُوَ عَلَيْهِ بِالنِّسْبَةِ لَهُمْ (إِنْسَانًا مُزَيَّفًا) وَلَيْسَ مَا هُوَ فِعْلًا بِالنِّسْبَةِ لِنَفْسِهِ (حَقِيقَتَهُ الطَّبِيعِيَّةَ).

يُعْتَبَرُ الْوُجُودُ -مِنْ-أَجْلِ-الْآخَرِينَ مَوْضُوعًا مَرْكَزِيًّا فِي جَمِيعِ كِتَابَاتِ سَارْتِرِ الرَّوَائِيَّةِ وَلَيْسَ أَقْلَهَا رِوَايَتُهُ عَصْرُ الْعَقْلِ *The Age of Reason* حَيْثُ تَعَانِي مَعْظَمُ الشَّخْصِيَّاتِ فِي الرِّوَايَةِ إِحْسَاسًا بِالمَصَادِرَةِ لِرَأْيِ الْآخَرِينَ بِحُدُودِ مِتْفَاوَتَةٍ. وَالْوَاقِعُ أَنَّ الشَّخْصِيَّةَ الرَّئِيسِيَّةَ فِي الرِّوَايَةِ، وَهُوَ أَسْتَاذُ فِلْسَفَةِ سَاخِرٍ وَمُتَهَكِّمٌ يُدْعَى مَاتِيو دِيلَارُو، يَشْعُرُ بِأَنَّهُ يُصَادَرُ رَأْيَ صَدِيقَتِهِ مَارْسِيلَ عِنْدَمَا غَادَرَ مَنزَلَهَا بَعْدَ أَنْ أَخْبَرَتْهُ بِخَمَلِهَا مِنْهُ:

«تَوَقَّفْ، مَذْهُولًا: لَمْ يَكُنْ هَذَا صَحِيحًا، لَمْ يَكُنْ وَحِيدًا. مَارْسِيلَ لَمْ تَدْعُهُ يَذْهَبْ: كَانَتْ تُفَكِّرُ فِيهِ، وَهَذَا مَا ظَلَّمْتَهُ 'لَقَدْ خَذَلْتَنِي هَذَا النَّذْلُ'. وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ فَائِدَةٌ مِنَ السَّيْرِ فِي الظَّلَامِ فِي شَارِعِ مَهْجُورٍ، مَجْهُولِ الْهُوِيَّةِ، مَغْطَى بِقَلَابَسِهِ الصَّوْفِ - لَمْ يَسْتَطِيعِ الْهَرُوبَ مِنْهَا»، [عَصْرُ الْعَقْلِ، ص 19]

لِذَلِكَ، يَعْانِي كُلُّ شَخْصٍ مِنْ كَوْنِهِ شَيْئًا -مِنْ-أَجْلِ-الْآخَرِينَ، وَمِنْ الْعَارِ أَوْ الْكَرْجِ، أَوْ

الإذلال، وإن كان في بعض الأحيان يَشْعُرُ بالفخر أيضًا. وبوصفهم مُرَوِّجين للفوضى، نلاحظ أن الفلاسفة الوجوديين بطيئون بعض الشيء في الإقرار بأن هناك جانبًا إيجابيًا للوجود-من-أجل-الآخرين: العار، الإحراج، الإذلال، الكبرياء، الكرامة، هذه كلها جوانب تجعل الإنسان دائريًا بالكامل. إنها في الأساس جوانب مُتصلة بالآخرين. إنها أنا، لكنها موجودة هناك من أجل الآخرين. على الرغم من أن هناك أيضًا ما يُسَمِّيهِ سارتر «الممارسة الدينية للخزي»، [الوجود والعدم، ص 245]، والشعور بالخجل والخزي أمام الله أو أمام غيبي جَدَّتِكَ المُتَوَفَّاة، تلك أشكال مُشْتَقَّة من العار. العار Shame هو في الأساس عاز أمام شخص ما، وفي نظره. لا أحد يشْعُرُ بالعار أو الفخر لوحده أو أمام نفسه.

الإنسان كائنٌ موجود-من-أجل الآخرين -عازة، فخر- لكنه شيء موجود هناك من-أجل-الآخر. يمتلك الآخر جزءًا مما يعني أن يكون إنسانًا وله الحزبة في الحكم عليه؛ خز في الإعجاب به أو احترامه أو ازدرائه. وبصفته شيئًا له جوانب من كيانه تنتمي إلى الآخرين، جوانب يتحفل مسؤوليتها مع ذلك، يشعر الإنسان بعدم الارتياح. يُوجِّه قَدْرَ كبير من سلوك معظم الناس نحو السعي للتأثير على كونهم من-أجل-الآخرين، أو حتى للسيطرة الكاملة عليهم. يرغب البشر عمومًا بإثارة إعجاب الآخرين، ويبدلون جهودًا كبيرة لتشجيع الآخرين على محبتهم واحترامهم أو الخوف منهم. يتحدث الناس عن الشعور بالرضى عن أنفسهم وعن تحديد الأهداف الشخصية، لكنهم في الحقيقة يصرخون جميعهم: «انظروا إلي، أنا جميل، أنا ذكي، أنا رائع، أنا موجود، أنا موجود. حتى لو لم أكن أفضل منك، فأنا لا أقل جودة عنك بطريقتي الخاصة». أولئك الذين يتمتعون بالقدرة والتصميم يفعلون ذلك من خلال الفوز بميداليات ذهبية أولمبية أو التأهل كأطباء. أولئك الذين لديهم موهبة أقل يُحَقِّقون ذاتهم عن طريق تعلّم مهارات التكيف، ورسم الوشوم على أجسادهم، أو تركيب إطارات ذوارة لامعة وبزاقة عند إشارات المرور. وكما أشار العديد من الفلاسفة والمعلمين الدينيين العظماء عبر القرون: «كل هذا غرور».

إن لم يكن ذلك صحيحًا، لماذا لا يُطلق مدير شركة فيرجن، الملياردير ريتشارد برانسون، على سبيل المثال، بالونات حول العالم، أو أيا كان ما يفعله، من دون

أن يطزق أسماع العالم كله بنفسه وبخملته؟ إنه ليس بحاجة للمال الذي تجلبه له الذعاية، إذا لماذا كل هذا الترويج للذات؟ لسخرية القدر، إن الغرور هو السبب الرئيس الكامن وراء القدر الأعظم من الهوس الحالي لالقيام بأعمال مثيرة وسخيفة من أجل جمع التبرعات. إن الأعمال الخيرية تمنح الناس فرصة لاستعراض ونشر إنجازاتهم والترويج لأنفسهم - وغالبا ما يكون ذلك واضحا من خلال مشاركتهم في سباق الماراتون وهم يرتدون زي دجاجة أو هومر سيمبسون، بينما يتخفون وراء ستار من التواضع الفزيف وتمثيلية العقل الخيري وحمولات جمع التبرعات.

أنا فجبز على التساؤل عن دوافعي لتأليف هذا الكتاب. لا شك أنني أريد أن أمارس نوعا من الواجب الفكري حين أرشدك على الطريق لكي تصبح وجوديا، ولكنني أيضا أتباهى بقدرتي على تأليف كتاب آخر -مثنكزا في زي دجاجة- وبذلك أكون قد انتصرت وتجاوزت أشخاصا لم يؤلفوا هذا القدد من الكتب التي ألفها أنا، وخاصة جميع هؤلاء الأوباش الذين أحبطوني في الماضي. للأسف، بما أن الناس الذين يؤلفون كتبنا عن الطريقة التي يصبح فيها الإنسان وجوديا لا يصلون إلى برامج المحاورات التلفزيونية ليلة السبت، لذلك سأظل مغمورا؛ شخصا منقلا عن الاسم الذي يحمله الغلاف، اسقا أشاركه، بالمصادفة، مع العديد من الكتاب الآخرين على أي حال. ربما توجب علي اختيار وسيلة أخرى للتباهي، لكنني أفقر إلى الموهبة في أي شيء آخر. كنت سأضيف: «وربما أفقر الموهبة للتأليف أيضا». ولكن ذلك سيكون مزيدا من التواضع الزائف والغرور الخفي.

هل فكرتم يوما أن الاحتشام والحياء هما طريقتان ماكرتان لجذب المزيد من الاهتمام؟ مثل هؤلاء الأشخاص الفزعجون الذين تقابلهم ويتحدثون بهدوء شديد معتقدين بأنهم في غاية الأهمية ومحور الكون بحيث يمكنهم تقديم جواهر من فصوص الحكمة همشا بينما الجميع من حولهم يجب أن يترنحوا ويبدلوا جهودهم لسماع ما لديهم ليقولوه.

كان هناك فتى في مدرستي يدعى راي غروفز يمكنه التحدث بشكل جيد وبطلاقة لكنه لم يكن يتحدث كثيرا، كان يتحدث فقط مع عائلته بكل المعايير. كان راي -



إذا أعطيناها حقّه - بارعًا بشكل مدهش في المحافظة على ما هو عليه. عادةً ما كان يصرخ المُعلّمون على الطلاب ليحافظوا على الهدوء، ولكن على مرّ السنوات رأيت العديد من المعلمين يصرخون في رأي ليتحدّث. وعلى الرغم من إعجابي بعناده، إلا أنني لم أر أبدًا رفض رأي التحدّث كإشارة على تواضعه أو تحفّظه أو حساسيته. لقد وجدته إنسانًا مغرورًا وأنايتيًا تمامًا. لم أكن أعرف هذه الكلمات في المدرسة الإعدادية لكنها بالتأكيد تُصوّر شعوري تجاه رأي. كان يأخذ مايقوله الآخرين، لكنه لم يكن يزُد لهم شيئًا. فجعل الناس يرغبون في التحدّث معه، وجعلهم يعتقدون بأنّ لديه أشياء رائعة وممتعة ليقولها. في حين أنّه، إذا تحدّث، جعل الناس يُدركون كم كان سطحياً ومُفلاً، ولا يملك شيئًا يستحقّ الاستماع إليه.

مثل معظم الناس، أشعر بالاستياء من الآخرين. حتّى إنني أشعر بالاستياء من طفلٍ صغيرٍ كنتُ أعرفه ذات مرّة في المدرسة، والذي قال عنه البعض إنّه لم يكن يتحدّث أبدًا لأنّه كان يخجل من صوته الخفيض. أنا مُستاء من رأي غروفر لأنّه، على الرغم من أنني حاولت، حكّم عليّ بأنني لستُ جيدًا بما فيه الكفاية للتحدّث معه. الاستياء هو سمة ورَدّ فعل للوجود-من-أجل-الآخرين، حقيقة أنّ الآخر يمكنه بسهولة إحباطنا وقصّ أجنحتنا وإسقاطنا.

مهما حاول الناس، لا يمكنهم أبدًا التأكّد من أنّهم يخلقون الانطباع المطلوب، وأنّ الآخرين لا يختارون بحريّة تبني رأيٍ مُخالفٍ للرأي الذي يرغبون في أن يكون لديهم. لقد تمكّنتُ هنا من تكوين آراءٍ مختلفة حول شخصيات محترمة نسبيًا مثل جامعي التبرّعات، والأشخاص الذين يتحدّثون بهدوء ورصانة، والأشخاص الذين يرفضون التكلّم أساسًا. حتى لو كان الناس واثقين من أنّ الآخرين سيتأثرون، وأنهم يحبّونهم أو يحترمونهم أو يخافونهم، وما إلى ذلك، لكن لا يمكنهم أبدًا أن يكونوا متأكّدين من دوام هذه الحال. إنّ حريّة كلّ شخص خاضعة لحريّة الآخر، تعالي-الآخر. إنّ مجرّد النظر إلى الآخر يُسمّره ويثبّته ككائن أو كشيء في عالم الآخر. فالإنسان كشيء-كائن بالنسبة للآخر هو تعاليّ تعاليّ من خلال تعاليّ الآخر. ويتوقّف عن الوجود مبدئيًا كذاتٍ حرة بالنسبة لنفسه، وبدلاً من ذلك، وفي المقام الأول، يصبح موجودًا ككائن غير حرّ بالنسبة للآخرين.

للحصول على فهم أفضل لعملية التحوّل من كائن مُتعالٍ إلى شينٍ مُتعالٍ، خُذ مثال رجلٍ يُشاهد موادَّ إباحية. يبقى الزجلُ خُرًا في عالمه حتى يُقبضَ عليه مُتلبسًا، إنه يظنُّ كائنًا خُرًا في العالم، مُتعاليًا، مُتساميًا. كان شخصًا مُنغمسًا في ما يفعله ولا يحكم على نفسه. فهو خُرٌ في تجاوزِ معنى أفعاليه ولا يحتاج إلى تعريف نفسه على أنه مُنحرفٌ بعض الشيء. وفي وقتٍ لاحقٍ، إذا فُكّر في تصرّفاته، فوسعه أن يتجنّب وُصم نفسه بالانحراف حين يقول إن تصرّفه كان مُجرّد نزوة انحراف أو سُذوذ، وأنه مُجرّد إلهاء حميد لا معنى له ولا يتزك أي أثر على شخصيته أو أخلاقه. وفجأة، يدرك أنه يُتجنّس عليه. ويرى نفسه مفضوحًا وعاريًا أكثر من العارضات والممثلات اللواتي يُشاهدن. ما هو عليه الآن قد انكشف أمام الآخر، وبالتالي أمام نفسه. هنا، لقد أفلت منه فعله وأصبح خارج سيطرته، ذلك الفعل الذي كان بلا معنى وبلا تأثير عليه، اكتسب معنى بالنسبة للآخر. إنه ينتمي الآن إلى الآخر الذي يراه فعلًا فاحشًا وفاضحًا. ويقبض الآخر عليه مُتلبسًا، ويكون الآخر قد استولى على حرّيته وباتت له الحرّية في الحكم عليه كما يشاء، وإلصاق المعاني فيه وُوصمه -الفتلّصص، المُنحرف، العجوز، القذِر، الفاجش.

يجب ألا يغيب عن الأذهان أبدًا، عند التفكير في الوجود-لأجل-الآخرين، أن الآخر هو آخر-لأجل-الآخر، وبالتالي يمكن أن ينفّر من خزية الآخر، وأن يعزلها عن طريق تجاوز تساميه. ومن المثير للجدل أن الفلاسفة الوجوديين يميلون إلى وُصف العلاقات الإنسانية على أنها صراعٌ مستمر من أجل السيطرة والهيمنة والتسامي، بحجة أن أساس جميع العلاقات الإنسانية هو الصراع. وقد استكشف سارتر بشكلٍ أكثر تفصيلًا ودقّة في مسرحيته المُتشائمة إلى حدٍ بعيد في *الكاميرا* هذا الصراع والفعانة الناجمة عن العيش لأجل الآخرين، أو من أجل الغير. على الرّغم من أن المسرحية كئيبة ولا تناسب الأشخاص الذين يُعانون من زهاب الأماكن المُغلقة، إلا أنها مسرحية لا تُخلو من ذكاء وفطنة. فهي تدور حول ثلاثة أشخاص كرهين، أنانيين ومحبوسين في غرفة المَعيشة إلى الأبد - مثل لعبة الأخ الكبير، ولكن مع محاورات ذكية. حيث أعلن غارسين، وهو إحدى الشخصيات الرئيسة في المسرحية، صراحةً: «لا حاجة للبوكرز المُفغمين بالحيوية، الجحيم هو الآخرين»، [في الكاميرا،

يقاومُ بعضُ الثُّقاة الادِّعاء الذي يطلقه العديد من الفلاسفة الوجوديين بأنَّ الصراع هو جوهر وأساس جميع العلاقات الإنسانية، وأنَّ الجحيم هو الآخرون، ليس لأنَّهم يروئهُ ادِّعاء مُتَشائفا، بل لأنَّهم يعتقدون بأنَّه تعميمٌ شاملٌ لا يصمد أمام التَّمحيص والفحص الدقيق. ويُجادلون بأنَّ الفلاسفة الوجوديين مثل دو بوفوار، وكامو، وسارتر يتحدثون من خلال تجاربهم الشخصية البائسة. كونهم عاشوا ذروة حياتهم في وقتٍ قريبٍ من الحرب العالمية الثانية، وشاركوا بشكلٍ شبه حصري تقريبًا حفنةً من المُثَقِّفين الباريسيين الحاقدين والفهوسيين بانتقاد بعضهم البعض من أجل التأثير. فكل هذا قادهم إلى الاستنتاج بأنَّ جميع الناس يقضون حياتهم بأكملها في صراعٍ بعضهم مع بعضهم الآخر في محاولة لتبادل الضربات فيما بينهم. لا شك أنَّ الناس كثيرًا ما يخنقون بعضهم البعض، وكلُّ من عاش أو عاين أهوال الحرب العالمية الثانية قد يُغفِّر له استنتاج أنَّ هذا الصراع هو ظاهرة عالمية وشاملة. ومع ذلك، يبدو من الإنصاف القول إنَّ الفلاسفة الوجوديين في كثيرٍ من الأحيان يُبالغون في التأكيد على جانبٍ واحدٍ من جوانب السلوك البشري لإحداث تأثيرٍ درامي. عندما يقترحون أنَّ ما يُسمِّيه سارتر «النظرة» تمثِّل تهديدًا دائمًا، فإنَّهم يتجاهلون الأدلة على مواقف وحالات مُعاكسة تمامًا، مثل النظرة الحانية والحامية بين الأم وطفلها. لكنَّ الحقيقة الفعلية هي أنَّ الآخرين هم جحيم في بعض الأحيان، وجنَّة في أحيانٍ أخرى.

ولكي نصف الفلاسفة الوجوديين، تُجذِّز الإشارة إلى أنَّهم يُظهرون في الواقع تقديرًا عظيمًا للقدرة التي يتمتع بها البشر على التعايش معًا من دون تعارض في مفهومهم لـ «الوجود-مع» *Mitsein* بالألمانية. وقد اتَّبَع الفلاسفة الوجوديون الفرنسيون نهج الفيلسوف الألماني هيدغر في استخدام مصطلح *Mitsein* للإشارة إلى ظاهرة الوجود-مع الآخرين؛ إلى ظاهرة الـ «نحن». في تلك المناسبات التي يسيطر فيها شعور الـ «نحن» على شخصٍ لا يتسامى عليه الآخرون، ولا هو يسعى للتسامي على الآخرين. بل إنَّ «أنا» تتسامى من خلال تجربة جماعية أو مشروع جماعي يَنغمس فيه بوصفه جزءًا من الـ «نحن».

ومع ذلك، غالبًا ما يُحافظ على هذا الانغماس في أنفسنا من خلال الصراع مع أحدهم بوصفه خَصَفًا أو كائنًا مكروهاً - صراع على مستوى المجموعة. كانت تجربة هيدغر الخاصة عن «الوجود-مع» *Mitsein* تتمثل باشتراكه كعضو في الحزب الاشتراكي القومي لهتلر. ومع ذلك، هناك مناسبات لا تتطلب الـ«نحن» وجود الـ«هم» من أجل الحفاظ على ذاتها. على سبيل المثال، قد تعمل المجموعة معًا في مهمة ذات هدف مشترك ليس مجرد التدمير أو التغلب على المنافسين. بدلاً من ذلك، فإن المجموعة التي وُجِدَها الدين أو الموسيقى أو الرقص أو المخدرات، أو كل هذه الأمور في وقت واحد، قد تحقق حالة من الخيال والتآزر التي تصل إلى حالة ضياع وانصهار تام للأنا في الجماعة، إلى فردوس حقيقي.

### الحرية والمسؤولية

على غرار ميل غيبسون في فيلمه الزانع - وإن لم يكن دقيقًا من الناحية التاريخية- قلب شجاع *Braveheart*، كان الفلاسفة الوجوديون يرفعون دائمًا شعار حزبية. مع أنهم لم يُحزروا اسكتلندا من الإنكليز (أو فرنسا من الألمان)، أو يُشنقوا وتُسحب معاؤهم من بطونهم، فإنهم يعتبرون حزبية الإنسان ذات أهمية قصوى في المقام الأول. كان وليام والاس، البطل الذي جسّد ميل غيبسون شخصيته في الفيلم، مناضلاً شرساً في سبيل الحرية، لا يُساوم ولا يُهاين، خاصةً بعد أن قام الخثالة الإنكليز بقطع عنق زوجته. لقد أدرك الحقيقة الوجودية القائلة بأنه ليس خُزًا فقط عندما تسمح له القوى والسلطات ببعض الامتيازات (وهي لا تفعل ذلك)، ولكنه خُزٌ بشكلٍ أساسي ومحتوم مهما كانت ظروفه، وأنه لا يمكن لأحد أن يسلبه حزبيته مهما حاول استعباده. فهو، كالفيلسوف الوجودي، حكيمٌ بالقدر الكافي ليُدرك أن ما يفعله قد اختار فعله بملء إرادته، وأنه مسؤولٌ دائمًا عن أفعاله. فضلًا عن ذلك، فهو كتمثيل وجودي حقيقي يُصرُّ على التأكيد على حزبيته. إنه يرفض أن يكون عبداً كما يريده ظالموه الإنكليز أن يكون، وبرفضه استخدام حزبيته للتحقق منها، فإنه يدفع الثمن الأقصى. لقد انتصر في النهاية، لكن جيشه قد هُزِمَ، ووقع هو في الأسر. ثم غُذِبَ، وقُطعت أطرافه، وغُلقت في أركان المملكة الأربعة، لكنها أطراف رجل مات ليؤكد



بالزغم من أن معظم الفلاسفة الوجوديين مهتمون بالحزبات المدنية وحقوق الإنسان، إلا أن دفاعهم عن حرية الإنسان ليس مجرد موقف سياسي، رغبة منهم في تعزيز الحرية والعدالة وتأكيدهما في جميع أنحاء العالم، بل هو اهتمام فلسفي عميق. يرى الفلاسفة الوجوديون، على أسس فلسفية مدروسة، أن جميع الناس وُلدوا أحرارًا، وهم أحرارٌ جوهريًا، وبالضرورة، ومسؤولون بغض النظر عن الظروف أو مستوى الاضطهاد السياسي والاجتماعي والاقتصادي الذي يعانون منه. وخلافًا للاعتقاد السائد، لا تهتم الفلسفة الوجودية بالحرية في المقام الأول، بالنسبة للفلاسفة الوجوديين، لا تعني الحرية ما يتمتع به البشر أساسًا من حرية الفعل أو التصرف، بل تتعلق بمسؤولية أي شخص عما يفعله أو لا يفعله في مختلف الظروف التي يجد نفسه فيها. ومن الأهمية بمكان لكي نفهم نظرية الحرية الشخصية الوجودية بشكل أفضل، علينا أن ندرك أنها لا تقل أهمية عن نظرية المسؤولية الشخصية الفردية. الحرية ليست تُحرزًا من المسؤولية، الحرية هي أن تقوم باختيارات، وبالتالي يجب أن تتحمل المسؤولية.

النظرية الوجودية للحرية متجذرة في النظرة الوجودية للاختيار والفعل، والتي بدورها تتجذر عميقًا في النظرية الوجودية للوعي البشري والزمانية التي تحدثنا عنها من قبل. عند الدفاع عن حرية الإرادة، لا يفسح الفلاسفة الوجوديون لها المجال ببساطة من خلال تقديم حجج مختلفة ضد الحتمية *determinism*. فالحتمية هي الزأي القائل بأن جميع الحوادث والحالات تستلزم حوادث وحالات سابقة لها. لكنها تقدم وصفًا إيجابيًا لحرية الإرادة لا يُظهر فقط إمكانية حرية الإرادة، بل يُظهر أنها ضرورية نظرًا لطبيعة الوعي.

كما رأينا سابقًا، فإن الوعي هو كيان متناقض وغامض وغير محتوم ولا يكون أبدًا واحدًا مع ذاته، ولا يتناسق مع نفسه أبدًا. إنه علاقة مع العالم لا تقوم على نفسها بل على ما هو عليه، وبالتالي لا شيء في ذاته، لا شيء في الحاضر. الوعي لا يكون في الحاضر أبدًا، فهو موجودٌ كحالة، رحلة زمنية مؤقتة، أو تجاوزٌ مبتعدٌ عن الماضي

نحو المستقبل. كما أن التجاوز الزمني نحو الوعي المستقبلي يقف خارج النظام النسبي للأشياء، عالم سلسلة «سبب - نتيجة».

تنتمي الحوادث، كما هي -و يمكن أن تكون غير ما هي عليه بمجرد حدوثها- إلى ماضٍ موجود بالنسبة للوعي الذي يمثل مستقبل ذلك الماضي. الماضي الموجود فقط بالنسبة للوعي الذي يتجاوزه نحو المستقبل. الوعي موجود فقط كتجاوز للماضي إلى المستقبل. الوعي هو مستقبل الماضي، ويعني أنه الإمكانيات المستقبلية للماضي. لا شيء سوى «كائن-نحو-المستقبل»، لا شيء سوى الإمكانيات المستقبلية لما يتجاوزه أو يتعالى عليه. يجب أن يكون الوعي هو هذه الإمكانيات ولا يمكن أن يكون انفتاحاً على الإمكانيات.

هذه الأمور عن الزمن والإمكانية هي جزء أساسي من الوجودية التي يصعب وصفها بأسلوب أكثر بساطة. لا تقلق إذا كانت الفقرة الأخيرة قد أربكتك أو بالكاد لامست شعرك أو فروة صلتك، كل ما هو مطلوب منك أن تقرأها مرة أخرى! فإعادة القراءة مرة أخرى في الفلسفة أمر طبيعي جداً. إنها عادة حكيمة، وليست علامة على محدودية أو قلة الخلايا العصبية النشطة. ماذا؟ هل قُمت بإعادة قراءتها خمس مرات، أم إنها واضحة؟ لا تقلق. امضِ قدماً. أعتقد بأنك ستفهم الفكرة العامة. الدماغ يشبه المعدة أكثر مما يتصوره الناس. هضم الأشياء يستغرق وقتاً، ومن المحتمل أنك ستفهم الفكرة عندما تضع الكتاب جانباً، أو تخرج للتنزه، أو تتناول العشاء، أو تشاهد التلفاز. غالباً ما تطرأ على ذهني فكرة ما عندما أكون في الحمام، وهو ليس المكان الأنسب لك، خصوصاً إذا أردت تدوين الملاحظات. والأمر الغريب حقاً هو أننا عادةً ما نفكر بشكل أفضل عندما نضع القلم والورقة جانباً.

على أي حال، الفكرة التي أريد إيصالها هنا هي أننا قادرون على أن نكون أحراراً في عالم قائم على أساس علاقة «سبب - نتيجة» الميكانيكية لأننا نهرب باستمرار من هذا العالم الميكانيكي نحو المستقبل. وفي المستقبل، نحن نهدف إلى التحرر.

تتمثل حرية الوعي في الانفتاح الدائم على إمكانيات المواقف. يكتشف الوعي نفسه في عالم من الإمكانيات التي يخلقها من خلال سموه أو تعاليه الزمني نحو

المستقبل. الوعي ليس في المستقبل، المستقبل موجود فقط كـ«ليس-بعد» يسير الوعي باتجاهه. وعلاوة على ذلك، لا يمكن أبدًا بلوغ المستقبل، لأن «الوصول» إلى المستقبل يعني تحويله فوزًا إلى ماضٍ. ومع ذلك، يهدف الوعي في المستقبل إلى الانعتاق والتحرر، بمعنى أن لديه مجموعة واسعة من الإمكانيات المستقبلية التي يدركها بنفسه.

من خلال الاختيار من بين تلك الإمكانيات، واختيار مسار الفعل، يجلب الوعي بعض إمكانياته إلى مجال الواقع ويدخلها في واقعه ويتخلى عن بعضها الآخر. إن تحويل الإمكانية إلى واقع هو ما يسميه الفلاسفة الوجوديون تحوّل ماضي المستقبل إلى مستقبل للماضي. وكما رأينا، الماضي هو ماضي المستقبل، مستقبل لمرة واحدة انتقل الآن إلى الماضي. وتحوّل بعض الإمكانيات التي يتألف منها الوعي إلى ماضي-المستقبل، ويصبح هذا الماضي-المستقبل من فوره منضّة للانطلاق لتجاوز إضافي للوعي تجاه إمكانيات مستقبلية جديدة، وهكذا دواليك. وتستمرّ العملية حتى يصنع الموت أبطالاً منا أجمعين.

إن حقيقة أن الوعي يجب أن يكون تجاوزًا زمنيًا من أجل أن يوجد أساسًا، وحقيقة أنه لا يمكن أن يكون انفتاحًا على الإمكانيات المستقبلية، تعني أنه لا يمكن أن يكون حرًا. ومن السمات الضرورية التي تميّز الوعي البشري أنه ليس حرًا في أن يتوقف عن الحرّية. الناس أحرارًا بالضرورة، أو، كما يقول سارتر: «البشر محكومون بأن يكونوا أحرارًا»، [الوجود والعدم، ص 462].

لا يمكن للمرء أن يتخلى عن حرّيته، إنه لا يستطيع أبدًا أن يجعل من نفسه شيئًا يحدده العالم المادي بشكل سببي، لأن مشروع التخلي نفسه؛ محاولة جعل نفسه مُحدّدًا سببيًا، يجب أن يكون خيارًا حرًا اختاره بنفسه. لا يمكن للإنسان أن يُحدّد من قبل العالم، لأنه كلما حاول ذلك أو كيفما فعل ذلك، عليه أن يختار القيام به. لا يمكن لأي شخص ألا يختار أبدًا لأن، كما يقول سارتر، «عدم الاختيار في الواقع، هو اختيار عدم الاختيار»، [الوجود والعدم، ص 503]. حرّية الشخص لا تتضمن انفصالًا كليًا عن جميع الالتزامات، بل هي نوع من الحرية الهيبتية Hippy Freedom وهي متضمّنة

في المسؤولية الدائمة المتمثلة في أن يختار ماهيته من خلال الأعمال التي يختار فعلها ردًا على المِحن ومقاومة وضعه. في رأي الفلاسفة الوجوديين المتشددين لا توجد نهاية لمسؤولية ضرورة الاختيار.

من المهم ملاحظة أن الفلاسفة الوجوديين يطلقون على هذه المِحن ومقاومة المواقف والأوضاع تسمية «الواقع المفروض» *facticity*. الواقع المفروض هو ما يمكن أن تتغلب عليه الحرية، مع أن الحرية تحتاج دائمًا إلى هذا الواقع المفروض من أجل تجاوزه والتسامي عليه. وعلى حدّ تعبير سيمون دو بوفوار: «إنّ مقاومة الشيء [الواقع المفروض] تدعم فعل الإنسان [الحرية] لأنّ الهواء يدعم هروب الحمامة»، [أخلاقيات الغموض، ص 81]. بقدر ما ترتبط الحرية ارتباطًا وثيقًا جدًا بما كنا نسقيه التسامي والتجاوز، يمكننا القول إنّ التّجاوز هو تجاوز الواقع المفروض. التّجاوز والواقع المفروض موجودان في علاقة وثيقة بعضهما مع بعض، ويمنح بعضهما بعضهما الآخر المعنى والواقعية. إنّ «التسامي» و«الواقع المفروض» مصطلحان فلسفيان مفيدان للغاية ومترابطان يسمحان للفلاسفة الوجوديين بالانطلاق في توصيفات دقيقة مختلفة حول العلاقات التي تربط الناس مع أجسادهم، ومع العالم، وفي ما بينهم وما إلى ذلك. سيتبين هذا عندما نناقش قضية سوء النية في الفصل الخاص بكيفية أن تكون لا وجوديًا. إنّ سوء النية عبارة عن لعبة يُتَعَمَد فيها التشويش والخلط بين التّسامي والواقع المفروض دائمًا.

## الحرية والعجز

كما أنّ الحرية ضرورية، هي أيضًا غير محدودة. غير محدودة ليس بمعنى أنّ الإنسان حُرّ في فعل أي شيء، أو الطيران من دون مساعدة، أو المشي على الماء أو لعق مرفقه، ولكن لا حدود لها بمعنى أنّ التزام الإنسان بأن يكون حُرًا، والتزامه باختيار الرّد في كل موقف، هو التزام مستمر حتى لو كان الشخص معوّقًا وغير قادر على المشي، على سبيل المثال، فإنّ حرّيته لا تزال غير محدودة. إنه ليس حُرًا في المشي بمعنى أنه يتمتع بحرية المشي، لكنه لا يزال حُرًا في اختيار معنى إعاقته ومن ثمّ يكون مسؤولًا عن استجابته لها. يقول سارتر، مقولته المثيرة للجدل: «لا



يمكنني أن أصاب بالشلل من دون أن أختار لنفسي أن أصاب بالشلل. هذا يعني أنني أختار الطريقة التي أنظر بها إلى إعاقتي (على أنها 'لا تُطاق'، 'مُذلة'، 'مُدعاة للإخفاء'، أو 'للكشف أمام الجميع'، 'موضوع فخر'، 'تبرير لفشلي'، إلخ...)، [الوجود والعدم، ص352].

إذا اعتبر المعوق أن إعاقته نهاية حياته، فهذا خيارٌ اتَّخذه وهو مسؤولٌ عنه وحده. إنه خُزٌّ في اختيار إعاقته بشكلٍ إيجابي. أن يسعى، مثلاً، ليكون لاعباً رياضياً ناجحاً أو لقضاء الوقت الذي اعتاد أن يقضيه بلعب كرة القدم في تأليف كتاب أو جمع التبرعات.

أصيب الممثل الهوليودي الشهير، كريستوفر ريف، الذي لعب دور سوبرمان، بالشلل من الرقبة إلى أسفل قدميه في حادثة ركوب الخيل عام 1995. وبفعلٍ مستمرٍ من الإرادة جديرٍ بسوبرمان وحده، رفض ريف الاستسلام لشلله الزباعي. بل ظلَّ إيجابياً ونشطاً وناضل بلا كلل من أجل حقوق المعوقين، وجمع عشرات الملايين من الدولارات لأبحاث الشلل. مات ريف شاباً نتيجة شلله، لكن هذا ليس بيت القصيد. الجميع سيموت عاجلاً أم آجلاً. النقطة المهمة هنا كيف عاش حياته. قال ذات مرّة: «أعتقد بأنّ التحديات التي نواجهها تشكل حافزاً كبيراً، لأنّ الكثيرين من الأشخاص ذوي الإعاقة يسمحون لإعاقتهم بأن تصبح العامل المسيطر في حياتهم، وأنا أرفض السماح للإعاقة بتقرير كيف أعيش حياتي». لا أعرف ما إذا كان ريف إنساناً وجودياً أم لا، لكن من المؤكّد أنّ لديه بعض الجوانب التي تجعل منه شخصاً وجودياً حقيقياً.

تسلّقت جبل سنودن في شمال ويلز وفي منتصف الطريق، مزلّث برجلٍ يشقُّ طريقه ببطء إلى أسفل الثّل على عكازين. كان مُحذودباً وساقاه السفليتان متفاوتتين في تمّدهما إلى درجة أنّه كان يمشي على جانبي قدميه. أومات برأسي مُرخباً بينما كنتُ أتقدّم نحو القفّة، متسانلاً كيف وصل إلى هناك. وفي طريقي للأسفل بعد ساعتين تقريباً، التقيتُ به على بعد أقل من ميل واحد من المكان الذي رأيته فيه لأول مرّة ومشينا معاً لفترة من الوقت. حالته جعلت كل خطوة صغيرة ينزلها من الجبل مهمّة شاقّة. كان يعاني منفرداً وبوحدة، ويسير ببطءٍ مؤلم مع

كلّ صخرة ترسم المسار الوعر هبوطًا، وكان تقدّمه خطيرًا بقدر ما كان بطيئًا مثل عكازيه اللذين كانا ينزلقان أحيانًا على الضخور الزطبة أو يفرقان في الوحل. لم يكن يملك الكثير من القوة لإنقاذ نفسه من السقوط، بل سقط عدّة مرات. اتّضح أنّه مصابّ بفتق في عموده الفقري. ونظرًا لأنّه كان يستحيل عليه جسديًا تسلّق الجبال، فقد ركب القطار إلى قمة سنودن ووضع نفسه أمام الثّحدي الهائل المتمثّل في السير هبوطًا. سيستغرق الأمر عدّة ساعات مرهقة للنزول على طريق لانبريس الذي يبلغ طوله خمسة أميال على ساقّيه المشوّهتين وعكازيه، لكنّه كان مصفّقًا على القيام بذلك. على الرغم من الضعوبة والألم اللذين كان يستمتع بهما لم يقبل أيّ مساعدة. كان سعيدًا بمواجهة الموقف الذي وضع نفسه فيه، سعيدًا بإتقان إعاقته واختيار معناها.

وجدت نفسي أقارن بينه وبين محبّي البطاطا الذين أعرفهم، الذين من خلال جشعهم، وكسلهم وإهمالهم لذواتهم بشكل عام، جعلوا من أنفسهم بشرًا غير لائقين صحيًا ومفرطين في السمنة بشكلٍ خطير. إنهم لا يناضلون للنزول من قمة جبل سنودن كما يناضل هذا الزجل المعوّق المصاب بفتق في حبله الشوكي، بل إنهم لن يكلفوا أنفسهم عناء محاولة الثنّزه أصلًا. وستكون تذكّرة العودة على متن القطار الجبلي بمثابة منقذ لهؤلاء السّفلة. الأمر الذي جعلني أتساءل من هو المعوّق حقًا في هذا العالم؟ «الفقعد» الذي يختار دائمًا دفع نفسه والقيام بكلّ ما في وسعه، أم الشخص البدين والكسول الذي يلجأ دائمًا إلى الخيار اللين والسهل ويفعل أقلّ ما يمكن إلّا في حال تعلق الأمر بأكل الفضلات وخلق الأعذار؟ ربما يكون الأشخاص المعوّقون الوحيدون حقًا في هذا العالم هم أصحاب الموقف المعوّق.

إنّ الإصرار على أنّ الشخص المعوّق مسؤول، من الناحية الوجوديّة، عن إعاقته، هو بالتأكيد وجهة نظر صارمة لا هوادة فيها. حتى إنّها تبدو قاسية وغير مناسبة من الناحية السياسيّة في ثقافتنا المعاصرة المتمحورة حول خلق الأعذار والتي تقلّل باستمرار من المسؤوليّة الفرديّة وتُغالي دائمًا في إلقاء اللوم على الظروف والواقع المفروض. ومع ذلك، يجب أن نفهم وجهة النّظر هذه على أنّها استراتيجيّة تمكينيّة وصحيحة من الناحية السياسيّة من حيث الاحترام الذي تظهره للأشخاص

ذوي الإعاقة. إن إخبار من يُسمى بالفُعوق بأنه مسؤول، من الناحية الوجودية، عن إعاقة، لا يعني إهانته أو إبداء عدم الاحترام له، بل إهامه وتحفيزه وإعطاؤه الأمل الحقيقي الوحيد المتاح إذا كانت إعاقة غير قابلة للشفاء. أي شخص معوق يرفض الانغماس في الشفقة على ذاته سيختار الانغماس في الشفقة على الذات كما يصفه سارتر- سيقبل بالتأكيد وصف سارتر لموقفه. لا يريد أي شخص معوق أن يُختزل إلى ماهية إعاقة، أن يُعتبر «مجرد مشلول في كرسي متحرك» أو «مجرد معوق على عكازين». يقول سارتر تحديدًا إن الشخص المعوق ليس إعاقة، بل هو استجابته المختارة بخزية لإعاقة وتساميه عليها وتجاوزها.

كان الرجل الذي قابلته في سنودن مصابًا باستسقاء في الحبل الشوكي، لكنه لم يكن معوقًا، بل قادرًا بشكل مختلف. كان يبذل قصارى جهده وأقصى ما يسمح له جسده؛ مشهدًا أغرب بكثير من رؤية بعض الناس الخاليين من أي عيوب خلقية ولا يمكنهم أو ليس في وسعهم القيام بما يقوم به. عدت إلى فندقي عند سفح سنودن، واستحمت ثم خرجت لتناول فنجان شاي كمكافأة استحققتها بجدارة. طوال فترة ما بعد الظهر وحتى المساء، وأنا أنظر إلى الجبال، تساءلت عما إذا كان ذلك الرجل لا يزال يواصل نزوله الحلزوني. أعتقد أنه كان على ما يرام ولم أسمع أي شيء يبين عكس ذلك، وحتى لو مات وهو يحاول تحقيق ذلك، فقد مات متجاوزًا الحقائق المرعبة للواقع المفروض المتمثل بـ«الإعاقة». إنها ميتة جيدة على ما أظن. على عكس الكثير من الأنظمة الفكرية العامة، كانت الوجودية دائمًا مجهزة للوصول لذوي الاحتياجات الخاصة، على الرغم من أنها، من ناحية أخرى، لا تقدم لهم أي تنازلات أو مساومات أو امتيازات خاصة.

### الحدود الممكنة للحزبة

إن الوجودي المعتدل موريس ميرلو-بونتي، الذي كان له إسهام كبير في التراث الوجودي متمثلًا في كتاب بعنوان ظاهرة الإدراك، يعتقد بأن هناك قيودًا على الحزبة في بعض الأحيان. وبطبيعة الحال، يفعل الناس أمورًا لا يمكنهم السيطرة عليها، كالتيقؤ بعد شرب خمس عشرة زجاجة من البيرة -وهي البيرة التي اختاروا شربها

بطبيعة الحال- ولكن هذا ليس ما يدور في مخيلة ميرلو-بونتي حقًا. إنَّ الثَّقِيؤُ بعد شرب خمس عشرة زجاجة من البيرة ليس شيئًا يفعله الإنسان في الواقع، بقدر ما يحدث عندما يخرج الأمر عن السيطرة. ومع ذلك، فإنَّ بعض الناس قادرٌ على احتمال خمس عشرة زجاجة من البيرة لمدة أطول بكثير من غيرهم بسبب قوَّة إرادتهم. ويفكر ميرلو-بونتي أكثر في بعض السلوكيات والاستجابات التي تتطلب إدراكًا واعيًا من أجل حدوثها ولكنها ليست مسائل اختيارية. الثَّقِيؤُ لا يتطلب بالضرورة إدراكًا واعيًا. فالبشر، وبالأخص نجوم الروك - جيمي هيندركس، جون بونهام، جون سكوت، غالبًا ما يتقيئون أثناء نومهم مع عواقب وخيمة. والفلاسفة الذين يتبنون موقف ميرلو-بونتي يعتبرون حس الفكاهة والتفضيل الجنسي وردود الفعل كالذعر والجنون أمثلةً على الثَّصْرَفَات والاستجابات التي تتطلب إدراكًا واعيًا لكي تحدث، ولكنها ليست مسألة اختيار. ويبدو أنَّ فحضا سريفا لهذه الأمثلة يكشف لنا أنه لا يمكن اختيار كل استجابة واعية بحرية.

حس الفكاهة: مع أنَّ التعلُّم والخبرة يمكن أن يغيِّرا حس الفكاهة عند الإنسان مع مرور الوقت، إلا أنه إذا وجد أنَّ التكنة مُضْحِكَة في الوقت الذي يسمعها فيه فإنه لا يختار أن يجدها مضحكة. لذا، إذا وجدتم الكوميدي الإنكليزي برنارد مانينغ الفهين مُضْحِكًا بشكلٍ مُتَعَمِّدٍ ومزعج، فهيا، اضحكوا، هذا ليس خطأكم. في الحقيقة أنا أجد برنارد مانينغ مضحكا بعض الشيء لأنه يذكرني بجميع هؤلاء الليبراليين المنافقين، اليمينيين، المُضْحِحين سياسيًا الذين علّموا أنفسهم اعتباره عدوانيًا. وجزء مما أجده مسليًا هو إهانتهم، لكنني لسث متأكدًا من أنَّ هذه النقطة تمت بصلة للنقاش الحالي.

التفضيل الجنسي: مع أنَّ الأشخاص العقلاء مسؤولون بلا شك عن جميع الأفعال والتصرفات التي تنبع من تفضيلاتهم الجنسية، إلا أنهم ليسوا مسؤولين عن تفضيلاتهم هذه. إنهم لا يختارونها بملء إرادتهم وبحرية، ولا يمكنهم اختيار تغييرها. قد نتساءل بشكلٍ جدِّي حقًا، لماذا يعتقد بعض علماء النفس أنَّ بإمكانهم إسداء المشورة للبيدوفيليين -ذوي الميول الجنسية تجاه الأطفال- للتخلص من ميولهم الجنسية؟ هل يظنون حقًا بأنهم يستطيعون إسداء النصيحة للمفايرين والمثليين جنسيًا انطلاقًا من تفضيلاتهم الجنسية هم أنفسهم؟ ظلَّ بعض البيدوفيليين أن يتم



إخصاءهم لمنعهم من تكرار ما يفعلونه. لكنهم بهذا الطلب يخلطون بشكل كبير بين الميل الجنسي الذي ليسوا مسؤولين عنه وبين الأفعال التي يُقدّمون عليها ويكونون مسؤولين عنها، وذلك بقصد التملّص بمكرٍ من المسؤولية عن أفعالهم.

ردّ فعل الذعر: الذعر له جانب جسدي وآخر عقلي. إنّه استجابة جسديّة تتطلّب وعيًا من أجل خلقها، لكنها ليست خاضعة لسيطرة الوعي دائمًا. في بعض الأحيان، يطفى الذعر على الوعي. وينتج عنه ردود أفعال كالقتال أو الفرار التي تُجهد الإنسان بين الاشتباك مع العدو أو الجري هزّيًا. يبقى الإنسان واعيًا بشكلٍ صارخ لكنه فُقد السيطرة على نفسه مؤقتًا. وكون الجندي، على سبيل المثال، قد تعلّم في النهاية مهارات السيطرة على ردود أفعال الذعر لديه من خلال التدريب والخبرة، وبالتالي تمكّن من السيطرة عليه وصار في وضعٍ يمكنه من اختيار عدم الذعر، لكن هذا لا يعني أنّ كل جندي، ولا سيما المبتدئ، لديه الخيار بين الذعر وعدم الذعر في حالات معينة عندما يبدأ الرّصاص بالأزيز من حوله وتبدأ البنادق الكبيرة بالزّير.

الجنون: يدرك الأطباء النفسيون أنّ المضطربين عقليًا بالفعل لديهم ميول ووساوس قهريّة لا يمكنهم السيطرة عليها أو التحكم بها على الإطلاق. إنّ النظريّة الوجوديّة المتشدّدة عن الحرية لا تسمح بتحفل المسؤولية الناقصة التي هي سمة مميّزة مقبولة في حالات المرض العقلي.

وبالتأكيد يصح أيضًا القول بأنّه لا يمكن تجنّب المسؤولية، أو تقييد الحرية باختيار عدم الاختيار. وبالتأكيد، إنّ العجز في العديد من المواقف في الحياة -إن لم يكن في أكثرها- مجرّد خدعة مألوفة. ومع ذلك، يبدو من الخطأ القول إنّ الناس مسؤولون دائمًا عمّا يفعلونه وعن التقييمات التي يجرونها. من بين جميع الفلاسفة الوجوديين، من المحتمل أنّ سارتر يمتلك أقوى نظريّة عن الحرّية والمسؤوليّة وأكثرها صلابة. إنّها نوعًا ما نتيجة الفترة التاريخية التي أنتجت فيها. فذلك أنّ سارتر، الذي تأثرت أفكاره على نحو متزايد بالمخاوف السياسيّة العامّة آنذاك، قام بواجبه لمقاومة الفدّ المتصاعد للفاشية والنازية الذي بلغ ذروته في الحرب العالميّة الثانية، بمبادئه بالحرّية الفرديّة والمسؤوليّة الشخصيّة الحتميّة.

ولعل سارتر، في نهاية الأمر، لا يقدم لنا نظرية فلسفية مصقمة بكل تفاصيلها، بقدر ما يقدم مثلاً نطمح إليه من خلال قوة الإرادة التي لا تكل والعقلية الضارمة العنيدة؛ حياة تتسم بأقصى قدر من المسؤولية، وأقل قدر من الأعذار والتبريرات. أم إنك تطمح لأن تكون ساذجاً متذمراً وغير مسؤول؟ هناك مبالغ ضخمة من المال العام المتاح للأشخاص الذين يطمحون لكي يكونوا من ضمن الفئة الأخيرة.

## الحزينة والقلق

قد يكون وعي الشخص بحريته غير المحدودة مصدر قلقٍ وكرب. هذا قد يجعل ذلك الشخص قلقاً من معرفة أنه لا يوجد كائن كما هو، وأن كل ما يفعله هو محض اختياره الخرز، وأنه لا يوجد شيء يمنعه من القيام بأي عمل مجنون يفكر في فعله بخلاف اختياره «لا تفعل ذلك». قام أحد أصدقائي بوضع قدمه ذات مرة داخل القضبان الأمامية لدراجة كان يركبها. وفي وقت لاحق في المستشفى عندما سأله عن سبب قيامه بذلك، أجاب بأن السبب هو أن القضبان كانت أمامه ولأنه أراد ذلك بكل بساطة. وبالنسبة لتقديراته الوجودية فإنه لم يخلق الأعذار ويقول: «كان عندي إلحاح شديد دفعني لفعل ذلك!».

تقودنا حزيتنا للقلق لأنه لا يوجد شيء سوى حزيتنا ذاتها تمنعنا من القيام بأعمال مدمرة أو خطيرة أو محرجة أو مشينة في أي لحظة. يمكنك أن تختار الآن أن تقول لرئيسك، إذا كنت مرؤوساً، أن يأكل البراز، أو يمكنك تدمير سمعتك المحترمة والعطرة في لحظة بكشف أعضائك الحميمة في الشارع. من الواضح أنني لا أوصي بذلك أبداً، ولكن على غرار عددٍ لا حصر له من الأفعال المحتملة الأخرى التي لا نقوم بها في كل لحظة، إنها خيار دائم. وعضواً عن كتابة الفقرة التالية، كان بإمكانني القفز من النافذة...

من الواضح أنني لم أقفز لأنك تقرأ هذه الفقرة. لكن بإمكانك أنت القفز من النافذة بدلاً من متابعة القراءة. لا بد أن أؤكد هنا أنني لا أوصي بذلك مخافة رفع دعوى قضائية من قبل ثقافة الأعذار لدينا (ثقافة «لوم أي شخص ما عدا نفسك»). ومع ذلك، الخيار يعود لك طبعا، من وجهة نظر وجودية.

يميز سارتر بين ما نستطيع أن نطلق عليه «القلق-من-الحرية» وبين الخوف. ويأخذ مثلاً رجلاً يشق طريقه بحذر على طول حافة ضيقة، [الوجود والعدم، ص 53-56]. يخشى الرجل السقوط، لكنه أيضاً يعاني من القلق الذي يسببه له الدوار، لأنه خز في الاستسلام والقفز. يقول سارتر: «الدوار هو الألم إلى درجة أنني لا أخشى السقوط في الهاوية، بل أخشى أن أرمي بنفسي مستسلقاً»، [الوجود والعدم، ص 53].

من أجل تجنب هذا القلق-من-الحرية، غالباً ما يتبنى الناس استراتيجيات لإقناع أنفسهم والآخرين بأنهم ليسوا أحراراً، أو أنهم لا يحتاجون للاختيار أو لا يمكنهم الاختيار، أو أنهم لم يختاروا في الوقت الذي اختاروا فيه فعلاً. وفي حالة الرجل الذي يمشي على الحافة، من الطبيعي تماماً أن يسعى جاهداً إلى تجاهل حرية القفز التي تهدده، وذلك بإشغال نفسه في مهمة شق طريقه بحذر على حافة الهاوية كما لو كانت حركته تُحدّد مادياً وفقاً لمتطلبات الحالة وليس من ذاته. إنه يتخيل نفسه مجبراً على التصرف وفقاً لما ثملي عليه غرائز البقاء والنجاة، وهلمّ جزاً.

إن إنكار حقيقة الحرية والاختيار، ربما كوسيلة لتجنب القلق، أو كاستراتيجية للتكيف، أو بهدف تجنب المسؤولية، هو ما يُسمّيه فلاسفة الوجودية بـ«سوء النية». إن «سوء النية» ليس نقيضاً للحرية، إنما الحرية هي التي تقود مباشرة إلى إمكانية حدوث سوء نية، لأن سوء النية عنصر من عناصر الحرية، وتهدف الحرية إلى قمع وإنكار ذاتها.

طرفة: ذهب طالب لمقابلة أستاذه الوجودي: «هل أنت حر؟» يسأله الطالب وهو يمدّ رأسه من الباب. يجيب المحاضر: «نعم، لكني لا أريد أن أكون كذلك». إذا كنت تريد أن تكون وجودياً حقيقياً، فعليك أن تجاهد لتكون حرّاً؛ لتؤكد حريتك وتتمسك بها، وتتجنب سوء النية في كل منعطف.

الفصل التالي سيتناول سوء النية.

## الفصل الثالث

### كيف تكون لا وجوديًا؟

يمكن لأي إنسان أن يفشل في أن يكون وجوديًا من خلال عدم معرفة أي شيء عن الوجودية، أو إذا اطلع عليها ولم يؤمن بها أو لم يصدق كلمة منها، أو إذا لم يبذل أي جهد لعيش الحياة التي توصي بها. ونحن نأمل، بعد أن قرأت هذا الآن، أن تكون قد عرفت قليلاً عن الوجودية، وبفضل تقييمها الصريح والواضح للحالة الإنسانية، اقتنعت بأنها صحيحة إلى حد كبير. إذا كان هذا هو موقفك الحالي، تكون قد استوفيت المعيارين الأول والثاني اللذين حددتهما في بداية الفصل الأول لتكون وجوديًا. لذا أنت في طريقك لأن تصبح وجوديًا بعد أن اجتزت معيارين من المعايير الثلاثة. وكما قال الكابتن ويليام بلاي ذات مرة (مرة على الأقل في فيلم شاهده) «فكر دائمًا في المدى الذي وصلت إليه، وليس إلى أي مدى يجب أن تمضي». كانت هذه هي طريقته الإيجابية في إخبار طاقمه الذي طالت معاناته بأنه لا يزال هناك طريق طويل لقطعه، تمامًا كما أخبركم بطريقتي الإيجابية الخاصة أنه لا يزال أمامنا طريقٌ طويلٌ لقطعه.

بعد التمرد الذي وقع على سفينة باونتي العام 1789، وُضع بلاي على متن قارب للنجاة بطول 23 قدمًا يعوم من غير هدى مع 18 من أفراد طاقمه من دون أي إمدادات. لمدة 47 يومًا، أبحر القارب 3618 ميلًا بحريًا إلى جزيرة تيمور من دون أي شيء سوى آلة السدس وساعة جيب وحمولة برميل من تصميم البحرية الملكية، والصلابة والعزم الحقيقيين. لا أعتقد أن بلاي كان وجوديًا، ولا أعرف ما يكفي عنه لأعرف ما إذا كان أصيلاً، لكنه بالتأكيد يمتلك بعض الصفات الشخصية المطلوبة ليكون وجوديًا حقيقيًا. العجوز ذو الوجه الكئيب بكل المقاييس - هذه ليست إحدى الصفات الشخصية المطلوبة ليكون وجوديًا أصيلاً ولكنها تفي بالعرض بعض الشيء - حدق في الواقع القاتم والكئيب الذي هو فيه وسأل نفسه: «ما هو المطلوب هنا؟»، ثم مضى وفعّلها. لم يبذل قصارى جهده فقط، لأن بذل الجهد أمر يفعله الأطفال والضغار في حصص الرياضة المدرسية الذين لا يعرفون حقًا ما هو أفضل ما لديهم،



لقد فعل ما هو ضروري.

إن معرفة ماهية الفلسفة الوجودية أمر سهل نسبيًا، والاعتقاد بها أسهل. في الواقع، إن الاعتقاد السائد هو أنها لا تتطلب شيئًا أو مجهودًا على الإطلاق. فقط اجلس مثكنا على مقعدك ودع تقييمك الصادق والنزيه للحياة يقنعك. الجزء الصعب هنا، وهو صعب مثل الإبحار في قارب نجاة صغير عبر آلاف الأميال في المحيط المعادي، يفي بالمعايير الثلاثة كما هو موضح في الفصل الأول؛ أي السعي للعيش بنجاح نسبيًا والالتزام بتوصيات الفلسفة الوجودية وتعاليمها والعمل بها. وكما هي تعاليم الوجودية ذاتها، فالنظرية، ككل، كذلك جيدة ومتناسكة، ولكن في النهاية الأفعال هي التي تهتمنا هنا. قد يكون التعرّف على الوجودية أسهل بكثير من استخدام آلة السدس لقياس الميل الزاوي لجسم سماوي فوق الأفق، ولكن أن تكون وجوديًا أصعب من العوم عبر المحيط الهادئ على متن قارب للنجاة ومعك 18 بخازًا وضيغًا وجاهلًا، ورعشة خوف تسري في جسدك من سمك القرش.

إن أكبر عقبة يمكن أن تقف أمامك أثناء رحلتك لتكون وجوديًا أصيلاً هي سوء النية. إن التصرف بسوء نية هو من أكثر الطرق المؤكدة للفشل في أن تكون وجوديًا. من المفترض أنك تقرأ هذا الكتاب لأنك تريد أن تعرف كيف تصبح وجوديًا، وليس لأنك تريد أن تعرف كيف تكون لا وجوديًا. ومع ذلك، أعتقد أنه سيساعدك على إحراز تقدم كبير في مسيرتك نحو هدفك في أن تصبح وجوديًا إذا قَدِّمْتَ لك توصيفًا لكيفية ألا تكون وجوديًا. أي إذا قمْتَ بوصف وتحليل سلوكيات سوء النية، فسيكون عليك تجنبها بأي ثمن إذا أردت النجاح.

كان الفيلسوف الوجودي جان بول سارتر أهم من تناول موضوع سوء النية. النظرية الوجودية لسوء النية هي نظرية سارتر في الأساس إلى حد ما، وربما كانت النظرية الأكثر إثارة للاهتمام وتحفيزًا للفكر التي خرجت من تلافيف عقله العظيم. كان سارتر مهووسًا بفكرة سوء النية لأنها كانت منتشرة بشكل كبير وتكمن في صميم الطريقة التي يتصرف بها الناس معظم الأوقات. بالتأكيد شعر سارتر بأنه كان محاظًا بسوء النية خلال مرحلة طفولته الملتزمة والخائفة عندما كان طفلًا لأبوين من

الطبقة الوسطى، وإن الكتابة عنها بإسهاب في دراساته النقدية وقصصه ورواياته ومسرحياته وسيره الذاتية ما هي إلا طريقة لمقاومتها والثمرد عليها على طريقته الخاصة. وذلك لحثنا نحن على فعل الشيء نفسه. يبدو من العدل القول إنه لكي يصبح المرء وجوديًا أصيلاً عليه أن يتعلم كيف يمقت «سوء النية» ويتجنبها بقدر ما فعل سارتر. يرتبط سارتر ونظرية سوء النية أحدهما بالآخر إلى درجة يصبح من المستحيل الحديث عن نظرية سوء النية من دون الاطلاع على ما يقوله سارتر عنها، ومن دون النظر بشيء من التفصيل في الأمثلة الزائفة التي يسوقها لنا لشرح ذلك. لقد قيل ما فيه الكفاية لتبرير النكهة السارترية القوية لهذا الفصل. فلنبداً بالتهجيف.

### سوء النية ليس خداعاً للذات

غالباً ما يوصف سوء النية بأنه خداع للذات، كأن تكذب على نفسك، لأنه في الظاهر يبدو كخداع لذاتك. إلا أن هذا التوصيف، مع ذلك، هو في أفضل الأحوال تبسيط مفرط، وفي أسوأها، مُضَلٌّ وخاطئ. لا يمكن أن يكون سوء النية خداعاً للذات لسبب بسيط وهو أن خداع الذات، بمعنى الكذب على النفس، أمرٌ مستحيل منطقيًا. لا يمكن لأي شخص أن ينجح في الكذب على نفسه أكثر مما يمكنه أن يفلت من الغش أثناء لعب الشطرنج مع نفسه. «أتساءل ما إذا كنت سألاحظ نفسي إذا قممت بسرقة بعض البيادق عن لوحة الشطرنج؟». ببساطة، لا يمكن لأي شخص أن يغش من دون معرفة أنه يغش. وعندما يكذب شخص ما فإنه يعرف أنه يفعل ذلك. كما يقول سارتر «المرء لا يكذب في ما يجهله، ولا يكذب حينما يذيع خطأً هو نفسه مخدوع فيه، إنه لا يكذب حينما يخطئ... إن الكذاب يجب أن يتمتع بإدراكٍ كاملٍ للكذبة وللحقيقة التي يخفيها»، [الوجود والعدم، ص 71].

ينطوي الكذب على محاولة متعمدة للتضليل، ويعتمد على حقيقة أن وعي الشخص هو وعي لا يدركه الآخر بشكلٍ مباشر. يتطلب الكذب أن يكون هناك وعيان مرتبطان من الخارج، ثنائية نفسية بين المخادع والمخدوع. ولا يمكن أن توجد مثل هذه الثنائية النفسية داخل وحدة وعي واحدة. الوعي شفّاف، إنه وعي من خلال، ومن خلاله لا وجود للأفكار إلا بقدر ما يكون الشخص واعياً بها. ولأن هذا الوعي

شفاف، لا يمكن تجزئته إلى أفكار يختفي بعضها عن بعض في أقسام وحجرات مختلفة.

من خلال رفضه لوجود ثنائية نفسية داخل وحدة الوعي، يرفض سارتر التمييز الشهير الذي وضعه المحلل النفسي النمساوي الشهير سيغموند فرويد بين الوعي واللاوعي. وفي محاولة لإظهار عبثية أطروحة فرويد، يجادل سارتر بأن الوعي لن يقدر على قمع بعض الأفكار غير المرغوب بها وكبتها في اللاوعي من دون معرفة ماهية الأفكار التي كان يقمعها فعلاً. يقول سارتر: «إذا نخينا لغة التحليل النفسي وأساطيره المادية، فإننا نلاحظ أن واجب الرقابة أن تعرف ماهية ما تكبته»، [الوجود والعدم، ص 75]. لا يمكن لحارس ملهى ليلي عملاق بارد المشاعر ومحدود الذهن القيام بعمله إلا إذا كان يعرف هوية ونوعية الأشخاص الذين من المفترض أن يستبعدهم. «أمم، ما اسمك؟ هل عندك رغبة جنسية تجاه الأم؟ انتظر لحظة، سأرى إن كنت على قائمة المدعوين. أوه، كلا يا صديقي، ليس الليلة، أنت ممنوع من الدخول».

في معرض حديثه عن شكل من أشكال سوء النية، يشرح سارتر المواقف والسلوكيات التي يشرحها فرويد على أنها نتاج ثنائية نفسية داخل الشخص الواحد. لا يتطلب سوء النية وجود هذه الثنائية الشخصية عند الشخص، ولا ينطوي على خداع للذات. وكما سنرى، فإن سوء النية يشبه إلى حد كبير مشروع إلهاء الذات أو الهروب منها أكثر من كونه خداعاً لها.

نظرًا لأن سوء النية مفهوم مجرد، لكنه ظاهرة وجودية ملموسة -مواقف أشخاص حقيقيين وميولهم وطريقة تصرفهم في الواقع- من الأفضل تقديم تفسير لها عن طريق أمثلة محددة وملموسة للأشخاص ذوي النيات السيئة. وهذا بالتأكيد نهج سارتر. فكتابه مليء بشخصيات سيئة النية، يسعى بعضها للتغلب عليها وتحقيق الأصالة، ويغرق معظمهم فيها أكثر مع استمرارهم في الحياة.

### الخداع والإغابة

يفتح سارتر توصيفه التفصيلي لسوء النية الذي يقدمه في كتاب «الوجود

والعدَم» عن طريق عرض مثال شابة لعوب، ولكنها ساذجة، وشاب يحاول إغواءها بأي طريقة. إنه أكبر منها، وأكثر خبرة. تأخذ المغازلة شكل مجاملات متنوعة من طرف الشاب، واهتمام محتشم، كما يبدو، من الفتاة التي تتجاهل خلفيتها الجنسية. أخيرًا، يمسك الشاب يد الفتاة، وهذا يخلق موقفًا يتطلب منها استجابة حاسمة، لكنها تختار المغازلة، من دون أن تُبعد يدها أو تسحبها بعيدًا أو تعترف بالعواقب المترتبة عن تشابك الأيدي. إنها تتعامل مع يدها وكأنها ليست جزءًا منها؛ كأنها شيء هي ليست مسؤولة عنه، وتتعامل مع امتناعها عن ترك يدها في يد الشاب كما لو لم يكن **فعلًا**.

تعرف الفتاة أن يدها ممسوكة، كما أنها تعلم جيدًا دلالة ذلك، ولكنها، بطريقة ما، تتجنب هذه المعرفة، أو بالأحرى هي مشروع مستمر للهروب منها وإلهاة نفسها عنها. إنها تُلهي نفسها عن معنى وضعها والتصرف بأطرافها بالهروب من نفسها إلى المستقبل. في كل لحظة، تهدف إلى أن تصبح شخصًا بعيدًا عن وضعها الحالي، شخصًا لا يحده وضعه الحالي. تهدف إلى أن تصبح كائنًا كما هو، كائنًا كطاوله أو صخرة، لكنه لا يزال واعيًا في الوقت نفسه. هذا الكائن لن يخضع لمتطلبات وضعه، ولن يكون مسؤولًا. لن تكون ملزمة بالاختيار والتصرف.

إنها تطمح في أن تتخلى عن يدها، أن تتنازل عن جسدها كله، للماضي، على أمل أن تترك خلف ظهرها كل شيء. ومع ذلك، في محاولتها للتخلي عن جسدها، تدرك أن وضعه أشبه بمطلب للاختيار. أن تُمسك يد الشاب طواعية أو تنسحب، هذا هو الخيار الذي ينتصب أمامها. لكنها تفشل في تلبية هذا القطلب من خلال اختيار نفسها بدلًا من ذلك ككائن يتجاوز شرط الاختيار. هذا هو الاختيار **السلبى** الذي ينطبق عليها ويُلهيها، ويقف عائقًا أمام الاختيار الإيجابي الذي تعرف أن وضعها يتطلبه تمامًا. إنها تتجنب هذا الاختيار الإيجابي من خلال محاولة اختيار نفسها كشخص تجاوز أو تسامى بمسؤوليتها عن نفسها المتجسدة في الواقع. إنها تجتهد لاختيار نفسها ككائن نجا من حقيقته، وأفلت من تعقيدات ومتطلبات وضعه.

كما رأينا، كل كائن بشري هو ذات وشيء على حد سواء، واقع مفروض وتعال، أو



لتوحي الذقة أكثر، تجاوز واقعها/المفروض. هناك العديد من الضيغ ذات الصلة بموضوع سوء النية كما كشفتها الأمثلة الملموسة والمتنوعة التي قدمها سارتر وكلها تدور بطريقة ما حول «الخاصية الثنائية للإنسان 'واقع مفروض - تعالٍ'»، [الوجود والعدم، ص79]. أساسًا، إن سوء النية هو مشروع السعي لعكس و/أو فصل الواقع المفروض عن التعالي. تتعامل الفتاة للعب مع حقيقة واقعها المفروض، حيث عليها أن تمارس اختياراتها بنفسها، وكأن لها سلطة متعالية وامتسامية على جسدها. بمعنى أنها تتعامل مع واقعها المفروض كما لو أنه تجاوز، تسام. وفي الوقت نفسه، تُعامل وبعيها المتسامي وكأنه تساميه الخاص، كأنه تجاوز-بذاته بدلًا من كونه تجاوزًا لواقع موقفها المفروض. أي إنها تتعامل مع تساميهها كما لو كان واقعًا مفروضًا.

في المثال نفسه يرد اقتراح للكيفية التي يجب على الفتاة للعب أن تتجنب وفقها سوء النية. إذا كانت تنوي أن تصبح وجودية أصيلة، أن تسعى خلف الأصالة والتزاهة، فستختار إما إبعاد يد الشاب بعيدًا والطلب منه أن يغرب عن وجهها، أو الضغط على يده وتحمل مسؤولية تشجيعه. والمثير للاهتمام، أنها حتى لا تكون في وضع سوء نية، لا يلزم أن يكون سلوكها الخارجي، أو حركتها الجسدية، أو عدم حركتها، محددة. ومع ذلك، فإن وضعها، أو ما تواجهه عقليًا، وما تهرب منه يحدث فرقًا كبيرًا بين سحب يدها أو شبكها مع يد الشاب. إن محاولة تجاهل واقع أن يدها ممسوكة يعني أنها ضعيفة العقل وعديمة المسؤولية. إنها تختار عدم الاختيار. إنه اختيار سلبي، مع أنه اختيار. إن اتخاذ قرار بالموافقة على الإمساك باليد والاعتراف بأن ذلك سيشجع المزيد من التماذي من قبل الشاب، يعني أنها تمتلك عقلًا قويًا وحسًا كبيرًا بالمسؤولية. إنه اختيار الاختيار، إذا جاز التعبير. إنه اختيار إيجابي.

أن تكون وجوديًا حقيقيًا أصيلًا، وأن تمارس سلوكك بأصالة، يمكن أن يكون في منتهى السهولة. أمر بسيط وسهل مثل الفرق بين أن تُمسك يدك أو تمسك بيدك. لكن الصعوبة في أن تكون وجوديًا حقيقيًا، كما قلت سابقًا، تكمن في الحفاظ على ذلك. أي إنها تكمن في إنتاج استجابات مسؤولة طوال الوقت عبر أوسع نطاقٍ مُمكنٍ من الظروف، وبعضها يصعب التعامل معها بشجاعة ومن دون أعذار أو تبريرات كونها مجرد حركات صغيرة في لعبة التزاوج هذه.

ربما خطر ببالك بالفعل أن الفتاة اللعوب التي توافق على أن تُمسك يدها، أو تقرر أن تسحب يدها بعيدًا هي بحكم تعريفها ليست لعوبًا. ومع ذلك، يمكننا أن نتخيل امرأة ورجلاً يمسك كل منهما يدي الآخر عمداً، لكنهما يعلمان أيضاً أن ليس لديهما أي نية للتُمادي والمضي أبعد من ذلك مع الطرف الآخر إلا الإمساك بيديه. هذا الشخص يبدو كنوع مختلف من الأشخاص المغازلين الواعين، مغالته لا تخلو من معرفة، ومضايقة. الشخص المغازل واللعوب الذي يقود الطرف الآخر في مسار حديقة قصير للغاية، في نهايته جدار من دون بوابة تؤدي إلى زقاق مظلم، الشخص المغازل اللعوب الذي يدرك أن أفعاله عبارة عن إشارات خاطئة ومضلة، هو عكس الفتاة اللعوب التي تحدت عنها سارتر والتي تنهزب من التفكير مما قد تنطوي عليه أفعالها.

هل اللعوب الواعية -المضايقة- نيتها أقل سوءاً من اللعوب المراوغة؟ يمكننا القول إنها ليست كذلك، لأنها تضلل الآخر عمداً، إنها لا تخطط لاستغلاله بالمعنى الجنسي، لكنها مع ذلك تستغله في لعبتها الخاصة. ربما تريد الانتقام من الرجال بشكل عام بسبب الطريقة التي عاملها بها رجل أو أكثر في الماضي. وربما لديها أسباب للانتقام من هذا الشخص بالذات. بغض النظر عن دوافعها، أو عدم وجود أي دوافع لذلك؛ استغلال شخص آخر من دون موافقته، ومعاملته على أنه مجرد وسيلة لتحقيق غاية المرء، يعني عدم احترامه ككائن حر.

يمكننا القول إنه كما أن احترام المرء لحرية الشخصية وتأكيداتها هو من قبيل الأصالة، فمن الأصالة أيضاً احترام حرية الآخرين وتأكيداتها. إن الفشل في احترام حرية الآخرين، كما نفعل عندما نضايقهم ونتلاعب بهم، هو نوع من أنواع سوء النية، ويعني أننا فشلنا في أن نكون أصيلين. يبدو أن الأصالة ليست مجرد مسألة شخصية، بل تتعلق أيضاً بكيفية تعاملنا مع الآخرين. إلى درجة أننا يمكننا تعريف السلوك الأخلاقي الجيد بأنه أصالة متعلقة بالغير.

### نُدل وممثلون ومواقف

مثال آخر من كتاب الوجود والعدم لشخصية تتميز بسوء النية هي مثال النادل. من خلال استخدام جميع مهاراته ككاتب روائي، يرسم سارتر صورة حياة للنادل

أثناء تأدية عمله. يمشي النادل برزانة آتية، مقيّداً حركاته كما لو كان آلة أو روبوت. يتقدم بسرعة كبيرة باتجاه زبائنه، إنّه متحمّس للغاية ومتيقّظ. يتولّد لدينا انطباع واضح بأنّه يلعب دور النادل. أحد الآراء الشائعة حول «نادل» سارتر هي أنّه في سوء نية لأنّه يسعى لإنكار تساميه ويصبح واقعه المفروض. بعبارة أخرى، إنّه يبالغ في أداء دوره كنادل لإقناع نفسه والآخرين بأنّه ليس شخصاً بل شيء، شيء-نادل. إنّه بصفته نادلاً سوف يهرب من حرّيته والقلق الذي تجلبه له ليصبح نادلاً-روبوتاً؛ كشيء مصنوع ليكون نادلاً، ولا شيء سوى نادل. هدفه أن يكون لنفسه شيئاً، ووظيفة، السموّ-المتجاوز بأنّه غالباً ما يكون من-أجل-الآخرين في دوره كنادل. إنّه يحاول أن يكون متوخّذاً مع تمثيله لنفسه، ولكن حقيقة أنّه يجب أن يُظهر لنفسه ما هو عليه يعني أنه لا يمكن أن يكون نادلاً.

إنّ محاولتك أن تكون شيئاً من أجل الهروب من مسؤوليّة أن تكون حرّاً هو بالتأكيد شكل معروف وشائع من سوء النية. ومع ذلك، جادل بعض المهووسين بسارتر، مخالفين وجهة النظر السارترية لمثال النادل، بمن فيهم أنا نفسي، أنّه على الرغم من أنّ النادل يسعى جاهداً ليكون شيئاً-نادلاً، إلا أنّه ليس في وضع سوء نية لأنّ الغرض من سعيه ليس الهروب من حرّيته ومسؤوليته. يمكن القول إنّّه لم يَعد في حالة سوء نية لمحاولته أن يكون نادلاً أكثر من ممثل سيئ النية ليكون جيمس بوند. وبنظرة دقيقة ومتفحّصة لمثال سارتر عن النادل نكتشف أنّه -على غرار الممثل- يمتلك شعوراً واضحاً بأنّه يعرف ما يفعله. إنّه يتصرّف بنية غير صادقة أو ساخرة؛ إنّه ينتحل بوعي -وإن لم يكن وعياً ذاتياً- شخصية نادل. أي: «إنه مزاح بمعرض الجد ليبدو ظريفاً». يخلق انطباعاً عن نادل، انطباعاً جيّداً بأنّه -مثل باقي الانطباعات الأخرى- يشبه ما هو عليه أكثر من أي شخص آخر. لقد بات يجيد ذلك لدرجة أصبحت فيه كطبيعة ثانية له.

إنّ القول بأنّ الثّصرّف كنادل هو طبيعته الثانية، لا يعني أن يعتقد بأنّه أصبح نادلاً بالطريقة التي تكون بها الصخرة «صخرة». بل يعني ذلك أنّه عندما يستغرق في أدائه لدوره لا يُظهر بأنّه يؤدّي دوراً أو يمثّل، بل يتقمّص الدور. يقول سارتر إنّ النادل «يتلاعب بحالته لكي يدركها»، [الوجود والعدم، ص 82]. وبقوله هذا لا يعني أنّه

يتلاعب بحالته من أجل أن يصبح كذلك، بل يعني أن حالته لا تتحقق إلا إذا لعبها. وكما رأينا، لا يمكن للإنسان أن يحقق هويته مع نفسه وأن يصير ما يصبو إلى أن يصيره مزة واحدة وإلى الأبد. لا يمكن للتادل أن يكون أبداً كما هو، ولا يمكن إلا أن يؤذي دوره.

يبدو من الفقرتين السابقتين أن مثال سارتر عن التادل بعيد كل البعد عن سوء النية، التادل الذي يصفه سارتر أصيل، وهو بعكس مفهوم سوء النية. إنه على عكس الفتاة اللعوب، لا يتهزّب مما هو عليه -يتجاوز الواقع المفروض- من خلال السعي للتعامل مع واقعه المفروض كتسامٍ والتعامل مع تساميه كواقِعٍ مفروض. بدلاً من ذلك، يسعى جاهداً لتحمل المسؤولية الكاملة عن شروط واقعه، واختيار نفسه بشكل إيجابي في وضعه بإلقاء نفسه وبإخلاص في الدور الذي اختاره. يسعى جاهداً لاعتناق ما يسمّيه سارتر في يومياته *يوميات الحرب* «وجوده-في-الموقف»، [يوميات الحرب، ص 54]. سيكون التادل سيئ النية حزيناً ومتردداً وشارداً: «أنا لسْتُ نادلاً حقاً». سيكون نادلاً اختار الوقوف عند الطاولات بينما يتمنى في الوقت نفسه أن يكون شخصاً آخر في مكانٍ آخر.

كنتُ مدرّساً في مدرسة مدّة عشر سنوات. خلال السنوات القليلة الأولى، تحققت مهنتي من أجل المال فقط وكنتُ أكرهها معظم الأوقات أكثر أو أقل. بقيتُ أفكر، هذا ليس أنا. لكنني كنتُ أنا لأنني كنتُ أمارس ذلك. لا يمكنك الادعاء بأنك كاتب أو معلق رياضي أو نجم سينمائي أو أي شيء آخر إذا كان ما تفعله كل يوم هو التدريس. كنت في حالة سوء نية. ولكي أكون صادقاً وأصيلاً، احتجتُ إما إلى أن ألعب هذا الدور بإخلاص وبحماسة مستمرة، أو أن أجد لنفسي شيئاً آخر لأفعله بصدق وبالحماسة نفسها. ونظراً لأنني لم أجد شيئاً آخر يساعدني على دفع فواتيري وتلبية متطلّبات معيشتي بشكلٍ جيّد أكثر من التدريس، قرّرت الانغماس بشغف في هذا الدور الذي ألعبه: مدرّس.

في البداية لم يكن الأمر سهلاً، ولكن في النهاية كلما ازدادت الحماسة التي أصابتنِي وازداد مردودي، كلما أحببتُ نفسي أكثر وبذلك المزيد من الجهد. الأمر الذي



ساعدني حقًا هو أنني قمت بتغيير مدرستي إلى مدرسة حيث المعلمون كانوا أقل غباءً وعلى مستوى لا بأس به من الثقافة، وكان الطلاب أقل حقارة ودناءة. لم يكن تغيير وضعي عمدًا عملاً ينم عن سوء نية بل طريقة لاسترداد كينونتي والاستحواذ على وضعي بأوسع نطاق ممكن. سوء النية هو التذمر من ظروفك من دون أن تفعل شيئًا لتغييرها.

إن المدرس سيئ النية، أو النادل، أو سائق الحافلة، أو الجندي، أو مدير المبيعات، جميعهم يقاومون تبني شرطهم وقبول حالتهم، والثماشي مع موقفهم. «الوجود-في-الموقف» هو سمة جوهرية لتكون أصيلاً وجوهرياً لكي تصبح وجودياً حقيقياً. وسنعيد النظر في الفكرة الوجودية «الوجود-في-الموقف» في الفصل التالي.

### المثلية والإخلاص والتسامي

طور سارتر تفسير سوء النية الذي قدّمه في كتابه *الوجود والعدم* من خلال مثاله الشهير عن المثليين الجنسيين. والشخصية التي تشبه إلى حد بعيد الشخصية التي يصفها سارتر في كتابه *الوجود والعدم* هي دانيال سيرينو، إحدى الشخصيات الرئيسية في ثلاثيته الزوائية *دروب الحزبة*. لا يُنكر المثلي السارترى رغباته ونشاطاته الجنسية، بل إنه ينكر أن المثلية هي أساس أو معنى سلوكه. وبدلاً من تحقّل مسؤولية سلوكه المثلي، اختار أن يصفه على أنه سلسلة من الانحرافات، مجرد شذوذات سلوكية، ناتجة عن الفضول فقط، وليست نابعة من نزعة عميقة ومتأصلة وما إلى ذلك.

إنه يعتقد بأن المثلي ليس مثلياً على النحو الذي يكون فيه الكرسي كرسياً. وهذا الاعتقاد مُبرّر بقدر ما يكون الشخص ليس كما هو، بل ما يصبو إليه، ما يهدف لأن يكونه من خلال خياراته. المثلي محقّ تماماً في أنه ليس شيئاً - مثلياً، ولكن بقدر ما يتبنى الشخص سلوكاً مُحدّداً كسلوك مثلي، فهو مثلي جنسياً. وكونه ليس مثلياً بالمعنى الذي يكون فيه الكرسي كرسياً لا يعني أنه ليس مثلياً بالمعنى الذي لا يكون فيه الكرسي طاولة. يجادل سارتر بأن المثلي «يلعب على كلمة *الكينونة*»، [الوجود والعدم، ص 87]. وإنه يفتر بمكّرٍ وخبثٍ «عدم كونه كما هو»، كـ«عدم كونه كما ليس

يحاول المثلي أن يُنكر تمامًا وجود حقائق مختلفة عنه، وأن بعض المعاني يمكن ربطها بشكل صحيح بسلوكه. إنه يحاول بذلك أن ينفي حقيقة أنه واقعه المفروض. إلا أن الحقيقة هي أنه واقعه المفروض إلى الأبد بمعنى أنه كان كذلك دائمًا. أي إن واقعه المفروض هو ماضيه، ولأنه ماضيه، وليس ماضي شخص آخر فهو مسؤول عنه إلى الأبد. بعبارة أخرى، مع أنه ليس واقعه المفروض في نمط كونه كذلك، إنه واقعه المفروض بقدر ما هو ماضٍ يؤكد باستمرار على أنه ماضيه من خلال تجاوزه دائمًا نحو المستقبل. إنه يفترض بسوء نية أنه تجاوزَ محض، وأن واقعه المفروض، وماضيه، قد اختفيا وتلاشيا في العدم المطلق لماضٍ مُعَمَّم لا علاقة له به على الإطلاق. في الحقيقة، وبعيدًا عن كونه تسامٍ محض، فهو تسامٍ لواقعه المفروض، ويجب أن يكون كذلك. في مشروعه عن سوء النية، يحاول المثلي جنسيًا إحداث شرخ بين واقعه المفروض وتساميه، في حين أنهما في الحقيقة مرتبطان أحدهما بالآخر بقوة مثل ماضيه ومستقبله.

يمتلك المثلي جنسيًا صديقًا، يمثل بطل الإخلاص، يحثه على الصدق والخروج إلى العلن والاعتراف بأنه مثلي جنسيًا. وبقيامه بذلك، يحثه على اعتبار نفسه مجرد حقيقة واقعة، كشيء-مثلي. في حث المثلي على اعتبار نفسه مجرد حقيقة واقعة، يهدف بطل الإخلاص إلى تصويره على أنه مجرد مثلي. طبعًا، المثلي جنسيًا هو مثلي، ومصطلح «مثلي» *homosexual* يفيد حقه ويصفه بشكلٍ صحيح، لكنه ليس مجرد مثلي جنسيًا. يجدر التكرار هنا، هو ليس مجرد حقيقة، بل هو تجاوز لواقعه المفروض. يريد بطل الإخلاص من المثلي أن يطلق على نفسه تسمية «مثلي». دافعه في ذلك هو سعيه لتصوير المثلي بشكلٍ نمطي وجعله كائنًا ثنائي البعد يعني حرمانه من بُعد الحزبية الذي يجعل منه فردًا، إنه يعني تساميه وتحويله إلى سمؤ-تجاوز.

مرةً أخرى نكتشف أن الصراع من أجل التسامي والتجاوز؛ الصراع الحتمي والأزلي، الذي يجادل به الفلاسفة الوجوديون، يكمن في قلب كل العلاقات الإنسانية.

عادةً يُنظر إلى الإخلاص، بإعجاب، كشكل من أشكال الصدق أو صفاء النية. لكن سارتر بطريقته الزاديكالية المعتادة، يفضح الإخلاص كشكل من أشكال سوء النية. إذا عمل المثلي جنسيًا بنصيحة صديقه ليكون مُخلصًا واعترف بشذوذه قائلًا: «أنا كما أنا»-«أنا شاذ»- فلن يتغلب على سوء نيته. إنه ببساطة يستبدل سوء النية في اعتبار نفسه تجاوزًا خالصًا لسوء النية من اعتبار نفسه حقيقة واقعية مُحضة. إن الإعلان «أنا كما أنا»، هو تأكيد لمغالطة أنني كيانٌ ثابت بينما أتهزّب من الحقيقة الوجودية بأنتي كائنٌ غامضٌ وغير محدد علي خلق نفسي باستمرار من خلال الاختيار والفعل. وباختصار شديد، إنه إعلان ذاتي على أنها واقعٌ مفروض في حين أنني في الواقع أتجاوز واقعي المفروض - وهذا سوء نية.

الواقع أن شكل الإخلاص الذي حدّدناه حتى الآن غير معقد نسبيًا. يحدّد سارتر أيضًا شكلًا أكثر تعقيدًا وخداعًا من الإخلاص. هذا الشكل الأكثر تعقيدًا وخداعًا من الإخلاص لا يزال ينطوي على قول الشخص: «أنا كما أنا»، ولكن يهدف هنا ألا يكون شيئًا، وألا يكون ما هو، بل أن ينأى بنفسه عما هو عليه من خلال فعل الإفصاح عما هو عليه. ومن خلال إعلان نفسه كشيء إنه يهدف إلى أن يصبح الشخص الذي يعلن أنه شيء بدلًا من الشيء الذي يعلنه عن نفسه. ويصر -بطريقة مخادعة- على أنه كشيء من أجل الهروب من كونه ذلك الشيء، ومن أجل أن يصبح الشخص الذي يتأمل من مسافة الشيء الذي لم يَعد كما هو.

يقول فريد معترفًا «أنا كسولٌ جدًّا»، ثم أصبح على الفور الشخص الذي يعترف بأنه كسول بدلًا من الشخص المسؤول عن كونه كسولًا. على عكس الشخص الذي يتبنى الشكل الأبسط من الإخلاص، لا يهدف فريد إلى أن يكون واقعه المفروض من خلال إنكار تساميه، بل يهدف إلى أن يكون تساميًا مُحضًا بعيدًا عن واقعه المفروض. والمثال الكلاسيكي لهذا الشكل المعقد من الإخلاص هو الاعتراف.

إن الشخص الذي يعترف بخطيئته يجعل منها موضوعًا للتأمل موجودًا فقط لأنه يتأمل فيها ويتوقّف عن الوجود عندما يتوقّف عن تأملها. يخال نفسه أنه سُفوّ مُحض، ويعتقد أنه خُرٌّ في الانتقال من خطيئته والهروب منها إلى الماضي، إلى

ظلال صندوق الاعتراف، كخطيئة عارية وليست ملكه أو مسؤوليته. الاعتراف الذي يهدف إلى الغفران هو سوء نية.

لقد استخدمت بعض الجماعات الدينية على نحو هائل هذا الشكل من سوء النية على مرّ العصور. إذ يقدمون خدمات الاعتراف والغفران الشخصية كعلاج لمرض الذنب الذي ينشرونه في كل مكان بالمجان. إنها استراتيجية تسويقية رائعة لا تفقد بريقها أبداً ودُفِعَ ثمنها أطناناً من الثروات والمباني الفاخرة.

لنُعد إلى موضوع المثلي للحظة، ما الذي ينبغي أن يفعله لتجنب سوء النية والتطّلع إلى الأصالة؟ كيف يتصرّف، وما هو الموقف الجديد الذي يجب أن يتبناه؟ من الواضح أنه سيئ النية إذا أنكر أن المثلية هي معنى سلوكه. إنه كذلك في حالة سوء نية إذا أضّر على عدم مسؤوليته عن سلوكه لأنه مثلي الجنس، لأنه شيء-مثلي؛ وكأنّ هناك ميولاً جنسية معينة تجبره على فعل جميع الأمور التي يفعلها. وهو لا يزال في حالة سوء نية إذا اعترف بأنه «كان» مثلياً جنسياً كطريقة ماهرة للتطّلع إلى ألا يكون مثلياً بعد الآن. وكما هو الحال مع الشابة اللعوب، فإنّ سبيل المثلي للخروج من حالة سوء النية ليس طريقاً معقّداً في الواقع، مع أنه قد يجد صعوبة كبيرة على المستوى الشخصي والاجتماعي في حمل نفسه على سلوك هذا المسار. عليه أن يقبل بحقيقة أنه مثلي الجنس، ليس عبر وصف نفسه بأنه مثلي، بل بقبول حقيقة أن سلوكه يميّزه بصفته شخصاً مثلياً وليس ثنائي الجنس أو مغايراً أو أي نوع من أنواع الشذوذ الجنسي. والأهم من ذلك، عليه أن يقبل أنه يختار سلوكه. كان بإمكانه أن يختار التصرّف بشكل مختلف لكنه لم يفعل. إنه مسؤول عن سلوكه، ولكي يكون صادقاً وفخلصاً عليه أن يتحمل مسؤولية سلوكه. عليه أن يتقبل أن سلوكه جزء من ذاته، وأنه سيظلّ كذلك دائماً. عليه أن يتقبل هذه الحقيقة.

يمكن القول إنّ المشكلة العميقة التي يعاني منها مثلي سارتر هي أنه لا يريد أن يكون المثلي الذي يختار أن يكونه رغم ذلك من خلال أفعاله. ويكاد يكون من المؤكد أنّ ذلك ينطبق على مثال سارتر عن المثلي، دانييل سيرينو: دانيال -كما يقول الأمريكيون- شخص متناقض، ولكن إذا أردت معرفة المزيد عنه، فسيتعين عليك



قراءة الزوايات. للتغلب على سوء نيته يجب أن يتخذ مثلي سارتر خطوة عاطفية صعبة متمثلة في الرغبة في أن يكون مثليًا جنسيًا مسؤولًا عن رغباته وسلوكه الذي اختاره لنفسه. عليه أن يتوقف عن الندم عن مثليته ويبدأ في تأكيدها. جزء من كوننا وجوديين حقيقيين هي الرغبة في أن نكون ما نصنعه من أنفسنا بالطريقة التي نختار التصرف بها، بدلًا من اختلاق الأعذار عن الطريقة التي نتصرف بها وندم عليها. هناك صلة وثيقة بين الأصالة ورفض الندم، وهو ما سأسلط عليه الضوء في الفصل التالي.

قد يحتاج المثلي إلى المساعدة لتحقيق مثل هذا التحول الجذري وتغيير نمط الحياة في موقفه. مساعدة ليست من بطل الإخلاص الذي يريد التقليل من شأنه من خلال السماح لنفسه بتصنيفه ووسمه، بل من صديق حقيقي، أو من مستشار وجودي! نعم، يوجد كائنات كهذه، تسمى مستشارين وجوديين يمارسون طريقة يسقونها «التحليل النفسي الوجودي» *Existential Psychoanalysis*، ابتكرها سارتر وطورها الطبيب النفسي ر. د. لينغ. الوجوديون هم مجموعة من الواقعيين الأشداء الذين يمتازون بالصلابة الواقعية، لكن هذا لا يعني أنهم يفتقرون إلى التعاطف أو الاهتمام الحقيقي لأنهم يستخدمون بصائرهم في الحالة الإنسانية لمساعدة الناس على مساعدة أنفسهم في التغلب على مشكلاتهم والبدء في العيش بصدق وأصالة وإيجابية، وبأقل قدرٍ من المعاناة، وأبعد ما يكون عن الندم.

هذا الكتاب، بطريقة ما، هو تدريب في الإرشاد الوجودي، وتقديم المشورة الوجودية، ولو لمجرد أنه يقدم نصائح -أي نصائح- حول كيف يمكنك أن تكون وجوديًا. هذا لا يعني أن عليك قراءته وأنت راقد على أريكة جلدية بعد دفعك 50 جنيهًا استرلينيًا في الساعة لكلب يهز رأسه أمامك، بالرغم من أن أي تبرع سيكون موضع امتنان وتقدير. والفصل الأخير يركز على موضوع المشورة الوجودية.

### الجهل المتعمد

في كتاب بعنوان الحقيقة والوجود كتبه بعد سنوات من الوجود والعدم، عاد سارتر مرة أخرى إلى موضوع سوء النية. وهو يستكشف في عمله هذا استراتيجيات

التملص والهروب وإلهاء الذات التي يلجأ إليها الناس لتجنب الحقيقة والبقاء جاهلين بموقفهم الحقيقي، جادل أن سوء النية في جوهره هو الجهل المتعمد الذي يهدف إلى تجنب المسؤولية. يلاحظ سارتر أن الجهل ليس نقضا في المعرفة. بل إنه، في الواقع، نوع من المعرفة. إن اختيار تجاهل الواقع يعني التأكيد على إمكانية معرفته.

يقول سارتر: «الجهل بحد ذاته كمشروع هو نمط من أنماط المعرفة لأنني إذا أردت تجاهل الوجود، فذلك لأنني أؤكد قابليته للمعرفة»، [الحقيقة والوجود، ص33]. الجهل يحزكه الخوف والقلق من كون معرفة الواقع القاسي أمرا ممكنا دائما، وهو كامن دائما. وبرأي سارتر، كما برأي نيتشه، إن معرفة الواقع ومعرفة طريقة سير الأمور ورؤية الحياة على حقيقتها، لا تتطلب ذكاء كبيرا، بل كل ما يتطلبه الأمر شجاعة وصدقًا في مواجهة الواقع.

وللمساعدة في شرح نظريته عن سوء النية والجهل المتعمد، يعرض سارتر مثال امرأة مصابة بالسل. ترفض المرأة الاعتراف بإصابتها بالسل على الرغم من ظهور جميع الأعراض - التعب، وفقدان الشهية والوزن، والتعرق الليلي، وآلام الصدر والسعال المصحوب بالدم. وهي تنظر إلى كل عرض من هذه الأعراض بمعزل عن الآخر، وترفض الإقرار بمعناها مجتمعة. وتنخرط في أنشطة لا توفر لها وقتًا لمراجعة الطبيب، أنشطة تلهيها عن اتخاذ الخيارات التي تتطلبها حالتها. إن أعراض السل تضعها على عتبة معرفة جديدة، لكنها تختار الجهل لأنها لا تريد تحقل مسؤولية التعامل مع مرض السل، والبحث عن علاج له، وما إلى ذلك من الأمور التي تتطلبها المعرفة الجديدة. وفي رفضها لمواجهة موقفها وتشتيت ذاتها وإلهاء انتباهها عن نفسها وتهزبها من المسؤولية، هي تشبه مثال سارتر عن الشابة اللعوب. بالنسبة لسارتر، إن الاستغناء عن الجهل المتعمد وانعدام المسؤولية والتأكيد بشجاعة على الحقائق الوجودية للحالة الإنسانية -الشعور بالهجران في عالم غير مؤمن وخالي من إله، والحرية، والمسؤولية، والفناء، وما إلى ذلك- يعني التغلب على سوء النية لصالح الأصالة.

ما يبرز بقوة في كتابات سارتر الخيالية تحديدا -قصصه ومسرحياته ورواياته-

هو أن الأشخاص ذوي النيات السيئة «لا يدركون أنهم ولدوا»، أو بالأحرى، الأشخاص الذين «لا يدركون أنهم ولدوا» هم في حالة سوء نية. يعتقد سارتر بأن هناك نزعة شائعة ومنتشرة بين الناس لتجنب مواجهة حقيقة الحياة وواقعيتها؛ محاولة يائسة وأحياناً عنيفة جداً لتجاهل الحقائق الوجودية الصعبة للحالة الإنسانية. إحدى الحقائق الوجودية القاسية التي يسعى الناس لتجاهلها وإنكارها بنفس الطريقة التي يعيشون بها حياتهم هي ما يسميه سارتر وفلاسفة آخرون بالإمكانية (2) *contingency*. ويمكن معرفة الكثير عن سوء النية، وعن قدر كبير من السلوك البشري عمومًا، من خلال دراسة ردود الأفعال المتنوعة وغير الأصلية عند البشر تجاهها. فما الإمكانية إذا؟

### الإمكانية الغميان ومسكن الكا-سيلزر لسوء النية

الإمكانية الظارئة، هي حالة طارئة، غير ضرورية، عرضية. وكل ما هو طارئ وعرضي، ليس ضروريًا، أيًا يكن فهو ليس ضروريًا ولا يجب أن يكون كذلك. يعرّف سارتر الإمكانية الظارئة على أنها سمة أساسية للعالم، وحقيقة أساسية للوجود، ويستكشف هذه الظاهرة بالتفصيل، لا سيما في روايته الرائعة *الغميان* وهي عمل أطلق عليه أصلًا عنوان *عامل الإمكانية* عندما كان يؤلفها. وقد استخدم سارتر مصطلح *Factum Being* «الكائن الطارئ» وتبناه لوصف أي شكل من أشكال التحليل القاسي.

بالزعم من أن سارتر يرى أن الوجود غير مخلوق، وهو موجود بذاته، ولا يعتمد على أي شيء آخر في وجوده، إلا أنه غير ضروري، أي زائد، فائض. ليس بمعنى أنه لا يمكن أن يكون، فلا توجد أي قوانين فيزيائية أو منطقية أو أي شيء آخر علمي ليكون كما هو. إنه كذلك، كما هو، ولكنه غير ضروري، وكونه غير ضروري، فهو طارئ وعرضي. يرى سارتر أن الوجود مشروط، بمعنى أنه غير ضروري بشكل عبثي. إنه حادث كوني طارئ وعرضي شنيع لا يلزم وجوده، ولكنه موجود، وجود بالإمكانية من دون أي غاية أو سبب.

إن الوعي البشري قادر على توليد حالة إدراك مُقَرَّرٍ ومُرْعَبٍ بأن المرء مغمورٌ في

وجود سخيّف لا معنى له، وزائد على الحاجة وغرضي. وقد أطلق سارتر على هذا الوعي المقرّر والمرعب اسم «الغثيان» - ومن هنا جاء عنوان أعظم تحفة روائية له. فالوعي البشري، إذا جاز التعبير، أكثر «غرضيّة» من الوجود الغرضي للعالم، لأنّه في حالة غدّم وجود كائن خاص به، فهو موجود فقط كعلاقة إمكانيّة طارئة، باعتباره مجرد انعكاس لشيء لا مبرز له. أن يعاني الشخص من الغثيان هو أن يمزّ بحالة مرؤعة من الوجود العاري والزائد الذي لا لزوم له، والذي لا يحيط به فحسب، بل يكمن أيضًا داخل عقله وجسده.

بحسب تعبير أنطوان روكنتان، الشخصية الزيّسة في رواية الغثيان، «إنّ الوضع سيئ! إنّه سيئ جدًا: فأنا أشعر بها، تلك القدرة، ذلك 'الغثيان' وهو شيء جديد هذه المرة: فقد أصابني وأنا في مقهى. لقد كانت المقاهي حتى الآن ملاذّي الوحيد لأنّها ملأى بالناس ومُضاعة جيدًا»، [الغثيان، ص 33-32]. في مجموعته آثار جانبية، وهي مجموعة من القصص القصيرة، يوصي الممثل الكوميدي الوجودي الأصيل، وودي آلن، بقرص مُسكّن (الكاسيلزر) الوجودي، وهو قرص ضخم بحجم باب السيارة، كعلاج لحالة الغثيان الوجودي الناجم عن الوعي المفرط بحالة الإمكان أو الوجود الطارئ للمقاهي والمنتزّهات والشوارع والحافلات والحياة بشكل عام. يقول آلن إنّه مفيد أيضًا بعد تناول وجبة طعام مكسيكي.

يهدف المجتمع البشري، ومعظم المساعي البشرية، باستمرار إلى قمع الإمكانية الطارئة من خلال فرض معانٍ وغايات على العالم. ويتحقّق ذلك إلى حدّ كبير عن طريق إضفاء أسماء على الأشياء وتصنيفها. فعند تسمية شيء، يعتقد البشر بأنهم فهموه، ونسبوا له المعنى، واستوعبوا جوهره الأساسي، وأزالوا احتمالية وجوده الطارئ الخام والمجهول. جميعنا نفعل ذلك. نرى حشرة غير عادية في الحديقة، نبحث عنها في دليل كولينز الشامل للحياة البرية ونكتشف أسماءها الشائعة واللاتينية ونشعر بالرضا لأننا عرفنا ماهيتها، وفهمناها، ووضعناها في مكانها الصحيح. ولكن هل طقوس التسمية والتصنيف هذه تجعل من الحشرة أقلّ غرابة، أقلّ من كونها حادثًا كونيًا طارئًا وغريبًا؟



الحقيقة، وفقاً للفلاسفة الوجوديين، هي أن الأشياء لها معنى وهدف فقط بالنسبة إلى غيرها من الأشياء الأخرى، وأن كل شيء له معنى وهدف نسبيان فحسب تضيفه عليه أنشطتنا التي لا طائل منها بعد كل شيء. وبالنظر لما هي عليه بحد ذاتها، وبصرف النظر عن الأنظمة المفيدة التي تعطيها وظيفتها أو إطار المعاني التي يبدو أنها تفسرها وتبزرها، تبقى الأشياء غريبة، غير مفهومة، بل ومزعجة في غرضيتها وطرونها. الإمكانية بالنسبة لسارتر حدث غامض، وأن تكون مُدرِّكاً للإمكانية الطارئة هو أن تكون مدرِّكاً لسر الوجود الذي لا يُسبر غوره.

إذا كنت تعتقد بعدم وجود قاسم مشترك بين الوجودية والتصوف، ففكر جيداً مرة أخرى. كان الفيلسوف شوبنهاور، الذي كان له أكبر تأثير على نيتشه والوجودية بشكل عام، متأثراً بشدة بالفلسفة البوذية. وهناك بالتأكيد العديد من أوجه الشبه بين المقاربتين الوجودية والبودية للحياة. قد يتطلب الأمر كتاباً آخر لاستكشاف هذه الأوجه بشكل مناسب، لذا لا يمكنني إلا أن أنصحكم بقراءة بعض الأعمال الممتازة العديدة المكتوبة حول الموضوع، مثل *التقص والتعالى: مشكلة الموت والحياة في العلاج النفسي، والوجودية، والبودية* لديفيد لوي: *Lack and Transcendence*، *The Problem of Death and Life in Psychotherapy, Existentialism, and Buddhism*. By: David Loy، أو *العدم والفراغ: معالجة بوذية لأنطولوجيا* جان بول سارتر لستيفن ليكوك *Nothingness and Emptiness: A Buddhist*، فهذا من شأنه أن يبقيك مشغولاً ببعض الشيء.

لا يوصي سارتر بأن يكون الناس مثل أنطوان روكنتان في رواية *الغثيان*، مسكونين دائماً بقلق شديد من الإمكانية الطارئة، ويسعون دائماً للعيش تحت ثقل مفهوم الخلود في عالم عبثي ولا معنى له. وهنا بالضبط يكمن الجنون بعينه. سارتر نفسه، مثل معظم الناس عاش في معظم الأوقات وتصرف في عالم يتكوّن من المعاني والغايات النسبية. وعلى غرار معظم الناس في معظم الأوقات، حافظ على عقله وإحساسه بنظرته من خلال توجيه انتباهه إلى المهمة التي بين يديه، إلى جولته اليومية «للقيام بأعماله»، والتي كانت بالنسبة له دافعه للتسكّع في المقاهي

بشكل أساسي والكتابة في غالب الأحيان. لم يُعد مهتمًا بالعلاج بالتجزئة *Retail therapy* أو طريقة *DIY* «افعلها بنفسك» (3) *Do it yourself*، وأعتقد بأنه لم يقدّر بجزء عشب أو غسل سيارة طوال حياته، لكنه كان مشغولاً دائماً.

ومع ذلك، كان يعتقد بأن الوعي العرّضي أو وعي الخلفية بالإمكانية الطارئة أمر حيوي إذا كان الإنسان يريد أن يحقق درجة معينة من الأصالة، وتجنب عيش سوء النية. تتميز فلسفة سارتر بالكرهية الدائمة وانعدام الثقة في الناس، وعادة ما يكونون من الطبقة الوسطى (البرجوازية)، الذين يبدو أنهم غير مدركين تماماً لحالة الحياة الطارئة التي يعيشونها، هؤلاء الناس الذين لمحووا لمزة واحدة فرصة للحياة وخافوها، والآن أصبحوا هارين منها. المشروع الأساسي لهؤلاء الناس هو الهروب من احتمالية سقوطهم في العالم وأحداثه عن طريق التصرف بسوء نية.

إنهم يخبرون أنفسهم بسوء نية أنّ العالم ليس مشروطاً أو طارئاً، بل مخلوق من أجلهم، وأنهم محوره. كما أنهم يفترضون أنّ لديهم جوهرًا خالداً، وأنّ وجودهم حتمي، وأنهم موجودون بموجب أمر إلهي وليس عن طريق إمكانية طارئة أو بالصدفة. إنهم يعتقدون بأنّ القيم الأخلاقية والاجتماعية التي يؤمنون بها موضوعية ومطلقة لا زيب فيها. ويعتقدون بأنّ هذه القيم المطلقة متجذرة ومتأصلة في المجتمع وأنّ الطريقة التي توجد بها الأشياء في المجتمع تشكل الحقيقة الوحيدة الممكنة. كل ما يتعيّن عليهم فعله للمطالبة بحقهم الأقصى في أن يحترمهم الآخرون وأن يُبقي احترام الآخرين لهم وهم ضرورة اضطلاعهم بالدور الذي أسنده إليهم المجتمع، هو أداء الدور الذي حدده لهم المجتمع بإخلاص والتماثل الكامل مع هذا الدور. إنهم يتعلّمون ألا ينظروا إلى أنفسهم إلا كما يراهم الآخرون، ويتجنّبون التفكير في أنفسهم بأيّ طريقة فلسفية. إنّ التفكير في غرابة وفجائية وجودهم أمر بعيد المنال تماماً. إنهم يتجنّبون قدر الإمكان التفكير في أي شيء على الإطلاق، إلا على المستوى العادي والمبتذل. ربما تكون قد قابلت أمثال هؤلاء الأشخاص، ويمكنك التعرّف عليهم من خلال محادثتهم. عندما تتحدّث معهم تشعر أنّك تتبع نصّاً يسمح بإدراج الحقائق الدنيوية ويمنع كل النقاش والتحليل والاستبطان والتخيّل.

يكتب الفيلسوف الوجودي، كيركجارد، عن الأشخاص الذين يعانون مما يسقيه هو «الجنون الموضوعي». الأشخاص المصابون بالجنون الموضوعي غير موجودين حقًا لأنهم فقدوا أنفسهم تمامًا في الموضوعية من خلال إغراق أنفسهم بالحقائق: حتى إنهم يعتبرون أنفسهم مجرد حقيقة أخرى. ويقارن كيركجارد «الجنون الموضوعي» مع «الجنون الذاتي»، وهو ما يفهم عمومًا على أنه جنون محض. يرى كيركجارد أن الشخص الذي يعاني من الجنون الموضوعي أقل إنسانية وافتقارًا للروح من الشخص الذي يعاني من الجنون الذاتي. المجنون غير الموضوعي شخص إنساني بالكامل، وجنونه يكشف عن روحه الحية.

دون كيشوت أفضل مثال على المجنون الذاتي، وخير مثال على المرأة المجنونة الموضوعية هي رئيسة الوزراء البريطانية السابقة، مارغريت تاتشر، بالرغم من مطابقة معظم الشخصيات السياسية لهذه المواصفات. على نحو ما، إن دون كيشوت أكثر واقعية كشخصية خيالية من شخصية تاتشر كشخصية واقعية. يكتب كيركجارد قائلاً: «غالبًا يتجنب المرء النظر في عيني رجل مجنون [جنونًا ذاتيًا] لئلا يضطر للبحث في أعماق هذيانه، لكن المرء لا يجرؤ على النظر إلى المجنون [جنونًا موضوعيًا] إطلاقًا، خوفًا من أن يكشف أنه يمتلك عينين زجاجيتين وشعرًا مصنوعًا من خزق السجاد. إنه باختصار شديد مُنتج اصطناعي»، [حاشية ختامية غير علمية، ص175].

## شوارب وأندال

الأشخاص في كتابات سارتر، والذين يسقيهم كيركجارد بالمجانين الموضوعيين غالبًا ما يمتلكون شوارب. يصبح الشارب بالنسبة لسارتر رمزًا لرجل لا يفكر وبلا حياة داخلية. لا يستطيع الزجل رؤية شارب، على الأقل بقدر ما يراه الآخرون، لذا يوجد الشارب من أجل الآخرين بشكل أساسي، والزجل ذو الشارب هو الزجل الذي تعهد بالوجود من أجل الآخرين، للغير وليس لنفسه. وكما هو متعارف عليه في الطبقة البرجوازية أن تسعى جاهدة للاضطلاع بدورها الاجتماعي، فيصبح الشارب بالنسبة لسارتر شعار رجل من الطبقة الوسطى، ضجل، وراض عن ذاته، محترم،

ورجعي. «إن السيد الجميل كانه وسام جوقة الشرف، كائن ذو شاربين، هذا كل شيء. لا بد أن المرء سعيد جدًا بالأا يكون إلا وسام جوقة الشرف، وإلا شاربين، والباقي لا يراه أحد، إنه يرى طرفي شاربيه المعزّنين من جهتي الأنف كليهما، أنا لا أفكر، إذا أنا شاربان»، [الغثيان، ص 147].

قد يكون سارتر قاسيًا على الرّجال ذوي الشوارب. ربّما كان يشعر بالغيرة لأنّه لم يستطع أن يُنقّي لديه شاربًا ذكوريًا كبيرًا. أنا متأكّد من أن التاريخ مليء بالشخصيات الوجودية الأصيلة وذوي المواهب الكبيرة. أعني، كان لدى نيتشه شاربٌ ضخّم، شاربٌ مُعْتَبَر. ومع ذلك، إذا كنت تريد أن تكون وجوديًا وصاحب شارب، فأنت بحاجة إلى التفكير مليًا في أسباب امتلاكك له، وما سبب حلق وجهك كلّهُ باستثناء تلك الرقعة من الشعر بين فمك وأنفك (لست متأكدًا من موقف سارتر من اللحي).

لا أنصحك طبعًا بخلق لحيتك. فإذا كان اعتناق الوجودية أمرًا سهلًا مثل اتباع القواعد التافهة حول وجود أو عدم وجود شعر الوجه، فسيكون هناك الملايين من الوجوديين الذين يحاولون السيطرة على العالم بدلًا من مجرّد حفنة شبه منقرضة يختبئون في المقاهي الرّخيصة وينامون على الأسيّة القذرة. مرّة أخرى، كونك وجوديًا لا يتعلّق بما تفعله بقدر ما يتعلّق بموقفك تجاه ما تفعله. وكالعادة، الخيار خيارك.

إنّ أشدّ أشكال إنكار الإمكانية الطارئة، أو أشدّ أشكال سوء النية سوءًا، يتمثّل في أشخاص يُطلق عليهم سارتر لقب «الأندالSalauds» أو الأوغاد باللغة الفرنسية. يسرد سارتر تفاصيل التّطوّر الشخصي للنذل النموذجي في قصة قصيرة وجميلة بعنوان طفولة قائد. النذل أو الوغد أبعد ما يكون عن الوجودي الحقيقي.

تتبع القصة التّطوّر العاطفي والنّفسي والاجتماعي والجنسي والأخلاقي للوسيان فورييه، وهو برجوازي يتمتّع بامتيازات منذ نعومة أظفاره حتى سنّ البلوغ. تتميز طفولة لوسيان ومراهقته بسعيه الذّووب لفهم من هو، وإيجاد نفسه وتعريفها، ليضفي على نفسه الصلابة والواقعية اللذين يحلان محلّ الغموض وانعدام المصادقية اللذين يشعر بهما عادة. ومن خلال شعوره بعدم التحديد والإمكانية



الطارئة للعالم يدرك الحقيقة الوجودية القائلة بعدم وجود شيء كما هو. ومثل أي إنسان آخر، عليه أن يؤدي دوره كما هو لأنه لا يمكن أن يكون كما هو ببساطة. ولكن لوسيان، مثله في ذلك كمثل العديد من البشر، لا يحب هذا الإحساس بالعرضية الفجائية والطارئة، فهذا من شأنه أن يجعله غير مرتاح وقلق. إنه يجذب استراتيجيات مختلفة للتغلب على إحساسه أثناء نموه، وفي النهاية يختار التصرف والتفكير بسوء نية عميق، ويخلق لنفسه وهم الاعتقاد بضرورته ويجبر نفسه على ذلك.

يلقي لوسيان باللوم في علاقته المثلية خلال سني مراهقته على أفكار سيغموند فرويد، الذي صادف أنه يهودي. من السهل على لوسيان، الذي نشأ في بيئة معادية للسامية، إقناع نفسه بأن الأفكار اليهودية الخطيرة والمنحرفة لفرويد كانت سببا في إفساد صحته الأخلاقية بشكل مؤقت وقادته إلى ممارسات مثلية. ثم يتبنى معاداة السامية كإلهاء عن رغباته الجنسية المثلية. ما يخافه ويكرهه حقًا هو رغباته، لكن أن يكره رغباته يعني وعيه بها وإقراره بأنه يمتلكها، لذا يوجه كرهه لليهود بدلاً من ذلك.

إنه يتبنى أمان واحترام تقاليد عائلته الثرية، ويتطلع إلى اليوم الذي سيرث فيه مصنع والده ويحظى باحترام عقاله. إنه يتبنى نظرة الأب الإيجابية نحو النظام الرأسمالي وقوميته، وقبل كل شيء معاداته للسامية. ينضم إلى الحركة الفاشية الفرنسية ويساعد في ضرب مهاجر أثناء هجوم بدوافع عنصرية. إن انتماءه إلى هذه الحركة العدوانية، الذكورية، المعادية للفكر والمناهضة للعقل يجعله يشعر بالقوة والفخر ويمنحه شعورًا بالانتماء. فقد كان في السابق يبحث عن هويته الشخصية، ولكنه الآن سعيد بالحصول على هوية منحتة إيّاها هذه القبيلة العنصرية الجديدة. وفي خضمّ ازدرائه الشديد لليهود، وكان هذا وسام الشرف الذي حصل عليه بين زملائه الفاشيين، لم يتحرّر من نظرتهم لنفسه على أنه كبش فداء لأفعاله السابقة فحسب، بل وجد نفسه مهمًا وحيويًا مقارنةً بالأشخاص الذين يحتقرهم. إنه يفخر بأنه ليس من عرق مُحترق، بل هو فرنسي يحمل اسمًا فرنسيًا محترمًا وأصيلًا. أما معاداته للسامية، رغم كونها غير معقولة وبلا أساس، حوّلتها إلى رجل صاحب قناعة.

إن قناعاته تشكّله وتمنحه الضلابة، بل وتلزم احترام الآخرين له.

اكتمل التحوّل في صورة لوسيان الذاتية، وبناء كينونته الزائفة، اكتمل أخيرًا عندما قزّر -غير راضٍ عن وجهه الطفولي البريء والجميل- أن يُنقي شاربًا. اكتمل انزلاق لوسيان إلى سوء نية مُزمن وجبان ومثير للاشمئزاز من الناحية الأخلاقية. لقد أصبح خنزيرًا حقيقيًا، نذلاً. لقد أقنّع نفسه بأن وجوده ليس غرضيًا، بل ضروريًا وأساسيًا، وأن له حقوقًا مقدّسة منحه إياها الرّب وأمته، مثل الحقّ في أن يكون له آراء وتحيّزات لا تقبل الجدل، والحقّ في تأكيد وجوده الضّروري باحترام الآخرين له، خاصة من هم دون مستواه الاجتماعي.

بلغ ازدراء سارتر للأندال المترفّعين ذروته في حالة من الغيظ عندما قام أنطوان روكنتان، وهو الشخصية الرئيسيّة في رواية الغتيان، بزيارة متحف لإلقاء نظرة على الصور واللوحات الفخمة لشيوخ بوفيل -وهي بلدة كانت تعتمد بشكل كبير على ميناء لو هافر حيث عاش سارتر لعدّة سنوات- الموقّرين والمتباهين الذين فارقوا الحياة الآن. يدرك أنطوان أنّ هذه الصور ما هي إلا كذبة عبثية متعجرفة وسخيفة. إنهم يصوِّرون كبار السنّ على أنهم أطول وأعظم وأكثر ثراءً وأكثر أهمية وأقلّ غرضيةً مما كانوا عليه في الحياة الواقعية. ومن خلال تصوير أنفسهم بهذه الطريقة، كان كبار السنّ يحاولون إقناع أنفسهم والآخرين بمكانتهم وضرورتهم، وأنهم لا غنى عنهم، وأنّ الله منحهم مكانة رفيعة في العالم والمجتمع، وأنهم يتمتّعون بحقوق وامتيازات تميّزهم عن غيرهم. كتبت آيريس مردوك في كتابها سارتر: عقلاني رومانسي *Sartre: Romantic Rationalist*: «وجوههم مُنشئية بالامتياز الممنوح - متوهّجة بالحق *éclatant de droit*. كان لحياتهم معنى حقيقي محدد، أو هكذا تخيلوا أنفسهم، وها هم، مع كل ذلك الشعور الإضافي بالضرورة والأهمية الذي يمكن أن يضيفه عليهم عقل رسّام»، [سارتر: عقلاني رومانسي، ص 12].

ومع أنهم كانوا أمواتًا، هناك إحساس بأنّ هؤلاء الشيوخ ما زالوا يحاولون إقناع العالم بتفوقهم واستحقاقاتهم. تقدّم الصور كذبة مفادها أنّ هؤلاء الأشخاص لم يموتوا حقًا، لكنهم ارتقوا إلى طبقة اجتماعية أسمى وأكثر احترامًا: الطبقة السوبر

برجوازية. إنهم مثل أفراد الطبقة الوسطى في قصة فيلم مونتي بايثون: معنى الحياة (Monty Python: the meaning of life) الذين يموتون بسبب تسفم غذائي بعد تناول وجبة سلمون. عندما يقبض حاصد الأرواح Grim Reaper أرواحهم فإنهم يُقادون إلى جنة الطبقة الوسطى في سيارات فولفو وبورش وروفر. زوجا في كل سيارة. لا يفكرون في مشاركة السيارة خلال رحلتهم الأخيرة. جنة الطبقة الوسطى، بالمناسبة، عبارة عن فندق خمس نجوم مع صالة ترفيه كبيرة يُقام فيها احتفالا دائما بعيد الميلاد.

وقد تم تلخيص معنى مفهوم «الأندال» وسوء النية العميقة في رواية الغثيان لسارتر عندما يسخر أنطوان من قصة جان باكوم، أحد أبرز مواطني بوفيل المتوقفين: لم يكن لي حق الحياة، لقد ظهرت مصادفة، وكنث موجودا كحجر، كنبته، كجرثومة... أما بالنسبة لهذا الرجل الجميل، الخالي من النقائص، الذي مات اليوم، بالنسبة لجان باكوم، ابن باكوم، من حكومة الدفاع الوطني، فقد كان الأمر مختلفا: إن خفقات قلبه وأصوات أعضائه كانت تجيئه بشكل حقوق صغيرة نقية فجائية. وقد استعمل، طوال ستين عامًا، بلا ضعف ولا هوادة، حق الحياة. يا للعينين الرماديتين الرائعتين! إنهما لم تعرفا أي شك. وكذلك باكوم، إنه لم يرتكب أي خطأ على الإطلاق، [الغثيان، ص 124].

وبصفته شخصا يدرك باستمرار أن الحياة ليس لها معنى أو هدف، كان سارتر مفتونا بالأكاذيب وسوء النية التي يسعى الأندال من خلالها إلى إضفاء معنى أو غاية لحياتهم. لا يشعر أنطوان بشخصيته البديلة سوى بالازدراء لعادة رفع القبعة الحمقاء والثرثرة السخيفة التي ينغمس فيها الناس لتزجية الوقت صباح يوم الأحد على طول شارع تور نوبريد. «أرى قبعات، بحرًا من القبعات. وأكثرها سوداء قاسية. وبين الفينة والفينة ترى إحداها وهي تطير بطرف ذراع كاشفة التماع صلعة رقيقًا، وبعد لحظات، تحظ على الرأس، في طيران ثقيل... 'صباح الخير يا سيدي، صباح الخير يا سيدي العزيز، كيف حالك؟ ارتد فبعتك مرة أخرى يا سيدي، فأنتك ستصاب بالبرد. شكرا يا سيدتي، إن الطقس ليس حارًا جدًا، أليس كذلك؟»، [الغثيان،

طبعًا، إذا كانت الحياة حادثًا كونيا غرضيا وطارئًا لا معنى له ولا غاية، فإن طقوس رفع القبعة والذرذشة الكسولة والمحادثات الفارغة ليست أكثر عبثية من أي شيء آخر يفعله الناس، وهي طريقة جيدة مثل أي وسيلة إلهاء أخرى لتزجية الوقت بين ولادة لا معنى لها وموت عبثي.

كان سارتر يحتقر، كرد فعلٍ على نشأته البرجوازية، على نحو ثابت سوء النية والزيغ اللذين يميزان الطبقة الوسطى إلى هذا الحد، ولكن ما الخطأ في سوء النية على المستوى الدنيوي العادي؟ يوفر سوء النية استراتيجيات للتكيف والتغلب على المشكلات اليومية، وهو بمثابة حاجز حماية من ذلك النوع من القلق الذي يجعل حياة أنطوان بآنسة ومثيرة للفثيان إلى هذا الحد. حتى نيتشه، بطل الأصالة العظيم، اعترف في كتابه ما وراء الخير والشَّر:

«تضييق الأفق، بمعنى من المعاني الغباء، كشرط للحياة والنمو»، [ما وراء الخير والشَّر، شذرة 188، ص 112].

كان سارتر سيجيب بالتأكيد عن السؤال: «ما الخطأ في سوء النية؟»، بالقول: إنه عدم التفكير، والكسل، وإنكار الحياة، وقمع الزوح الإنسانية الحقيقية الحرة، وإنه شرٌّ مُبتذل وضروري من أجل التفاهق وعدم تحقل المسؤولية اللذين يسببان الكثير من المتاعب والنزاعات والمعاناة في هذا العالم. ولعله كان سيقول إنَّ التاريخ يُسَم بالظلم والعنف والفهادنة، وغالبًا ما يكون الظلم والعنف نابعين من البشر العاديين الذين تصرفوا بسوء نية عميق عندما بزروا أفعالهم بالأعذار المألوفة: «كنتُ أقوم بعملٍ فقط»، «كنتُ أنفذ الأوامر»، «لقد جعلوني أفعل ذلك»، «لم يكن باليد حيلة»، و«لم أستطع منَع نفسي من ذلك».

\*\*\*

لقد حذرت في هذا الفصل المواقف والسلوكيات التي يجب تجنبها إذا كنت تريد أن تكون وجوديًا حقيقيًا. لقد حان الوقت لأن نركز الآن على ما يجب فعله



حُفًا بالمعنى الإيجابي لكي تكون وجوديًا حقيقيًا أصيلاً، بغض النظر عن معرفتك بالفلسفة الوجودية والانخراط فيها تقريبًا. من المؤكد أنه لم يُعد سِرًا، كما أشرت عدة مرات من قبل، أن كونك وجوديًا حقيقيًا له علاقة كبيرة بكونك أصيلاً، أو بشكل أكثر دقة، بالثبوت بأصالة ونزاهة. لذلك، ومن دون المزيد من اللغو، أعرض عليكم الفصل الأخير من هذا الدليل الغريب للمساعدة الذاتية والذي أمل أن يوجهكم في الاتجاه الصحيح للوجود الأصيل. إن القراءة والكتابة عن الوجود الأصيل شيء، وتحقيقه والظفر به هو شيء آخر تمامًا، وأنا لا أدعي أنني حققتَه، مع أنني أعتقد بأنني اقتربت من ذلك عدة مرات في حياتي حتى الآن. أنا لسْتُ خبيرًا، أو مرشد ديني (غورو Guru)، لأن الوجودية والأصالة لا تعنيان قطعًا اتباع تعاليم الآخرين، وبالأخص إذا كان ذلك بشكلٍ أعمى. الوجودية ليست ديانةً أو مذهبًا، هذا جُل ما أعرفه طبعا، وإذا كنت تريد أن ترسل لي مالا كما يفعل معظم الناس إلى هؤلاء المعلمين أو الغوروات في الهند، فلا تفعل. بل فكّر في، في هذا الكتاب الصغير، باعتباره كراسة إرشادية؛ لافتة متهاكة ومتأكلة على حافة عشبية عند مفترق طرق هادئ في مكان ما بانجلترا؛ إشارة لسبب ما إلى الطريق إلى ألفا سنتوري. الطريق إلى النجوم!

## الفصل الرابع كيف تكون أصيلاً؟

إذا تعلّمنا أي شيء حتى الآن عن الأصالة فهو أنها النقيض لسوء النية. سوء النية زيف، كذب. لقد تعلّمنا أيضًا أن الأصالة تختلف عن الإخلاص. الإخلاص شكل من أشكال سوء النية. وتكشف الأمثلة التي قدّمها سارتر عن أشخاص ذوي نيات سيئة أن السمة الصارخة للزيف هي محاولة الهروب والتملص من المسؤولية. تحاول الفتاة اللعوب لسارتر التملص من مسؤوليتها عن وضعها الحالي، بينما يحاول المثلي جنسيًا التهذب من المسؤولية عن أفعاله السابقة. أمّا بالنسبة للأشخاص المخلصين بالطريقة التي ينادي بها بطل الإخلاص، فإنهم يعترفون بكونهم طريقة إلهاء ومخادعة للتهرب من مسؤولياتهم.

ينفد الأشخاص المزيّفون وغير الأصيلين مشاريع وأجندات معينة لتجنب المسؤولية عن حالتهم الزاهنة أو أفعالهم الماضية برفضهم، عن سوء نية، الاعتراف بمسؤوليتهم. وبشكل أكثر دقة، إنهم يرفضون الاعتراف بقدرة الذات على التوافق مع نفسها كمجموعة من حقائق أو كتسامٍ محض، ويرفضون الاعتراف بالحرية غير المحدودة أو شبه المطلقة للذات وما تنطوي عليه هذه الحرية. إنهم يرفضون حقيقة أن على الشخص أن يختار ماهيته دائمًا لأنه لا يستطيع ببساطة أن يكون كما هو. وكما نعلم، يمكن لأي شخص أن يختار ردود أفعاله على المواقف التي يواجهها في حياته، ولأن ردوده على مواقفه مُختارة، فهو مسؤول عن اختياراته. حتى لو اختار عدم الاختيار، أو ألا يفعل شيئًا، فذلك لا يزال خيارًا هو مسؤول عنه.

### «الأصالة» وكيف تكون واقعيًا

عدم الأصالة أو الزيف هو إنكار الحقيقة الوجودية الأساسية بأننا أحرار ومسؤولون، بينما الأصالة، بصفتها نقيضًا للزيف، هي قبول أو تأكيد هذه الحقيقة الوجودية والأساسية. تنطوي الأصالة على مواجهة الشخص للواقع ومواجهة الحقيقة الصعبة القائلة بأنه كائن حرّ في جميع الأوقات ولن يتساق مع نفسه أبدًا.

بينما يحاول الشخص غير الأصيل تجنب الاعتراف بأن هذه هي الحقيقة الأساسية الوحيدة في حياته، فإن الأصيل لا يدركها فحسب، بل يسعى جاهدا للتصالح والتعامل معها كمصدر للقيم. يستجيب الشخص الأصيل بالكامل للذعوة إلى الحقيقة السائدة في الوجودية. وقد كتب سارتر في يومياته *يوميات الحرب* إن الأصالة «تتمثل في تبني الواقع الإنساني كواقع خاص»، [يوميات الحرب، ص113]. أي إن الأصالة تكمن في احتضان الواقع البشري كما هو والعيش في توافق معه بدلاً من التظاهر بأنه شيء آخر. وبدلاً من التظاهر بأنه حقيقة خيالية جميلة حيث تتحقق الأحلام من دون جهد، حيث لا يتعين سداد الديون، وحيث يمتطي الفرسان في دروعهم اللامعة خيولهم البيضاء ويمضون لإنقاذ الأميرات الغدراوات وحيث نعيش في سعادة وفرح دائمين.

بصفته تحولاً جذرياً ينطوي على تأكيد الشخص لما كان عليه دائماً -كأننا حزاً ومسؤولاً يفتقر إلى الاتساق والتصالح مع نفسه- فإن تبني الواقع الإنساني كواقع خاص به ينطوي على تحول جذري في موقف الشخص تجاه نفسه وحالته التي لا يمكن تجنبها. الشخص الحقيقي والأصيل لا يمارس حرته بغية إنكارها، أي لا يتصرف بسوء نية وتفضيل عدم الاختيار، بل يفترض الشخص الأصيل حرته ويعترف بها بطريقة إيجابية.

بافتراض أن الحرية تنطوي على تحقل الشخص المسؤولية الكاملة عن نفسه في أي موقف يجد نفسه فيه، فإنها تشمل قبول الإنسان لوضعه كما هو وليس غيره من دون شكوى، وأن هذا الموقف هو الواقع المفروض الذي عليه الآن أن يختار نفسه بناءً على خلفيته. إذا لم يكن سجيناً فيمكنه طبقاً لرفض وضعه من خلال الهروب والتملص، وغالباً ما يكون التراجع السريع خياراً حكيماً، لكنه لا يزال ينطوي على خيار. خيار يؤدي إلى مواقف جديدة ومتطلبات جديدة للاختيار. فيما عدا الانتحار -وهو الخيار الأصعب على الإطلاق- لا يمكن الهروب من الوجود تماماً، وكل موقف هو مطلب يجب اختياره. والأهم من ذلك، ينطوي افتراض حرته على إدراكه حقيقة كونه لا شيئاً، ذلك لأنه لا شيء في سياق كونه كذلك في ما عدا الاختيارات التي يُقدم عليها حسب حالته.

## الوجود-في-الموقف

يكتب سارتر في يومياته عن الحرب عن صديقه غير الأصيل بول الذي كان جنديًا. بول لم يكن جنديًا بالمعنى الذي يجب أن يكون عليه الجندي، ولكن بما أنه يحارب بصفته «جنديًا» في الجيش، فذلك هو سلوك بول، الذي يقول: «أنا جندي؟ أنا أعتبر نفسي مدنيًا بزئ عسكري»، [يوميات الحرب، ص112]. يكشف هذا التصريح بأن بول لا يتحمل مسؤولية اختياراته. فيقول سارتر: «وهكذا يتهزّب بعناد مقًا يصنعه من نفسه»، [يوميات الحرب، ص112]. يتهزّب بول مقًا يصنع من نفسه -جنديًا- نحو حالة «المدني» غير الموجودة التي يتصوّر نفسه فيها عن طريق الخطأ.

يشكل بول مثالاً على ما يسميه سارتر «الوعي الفلطوم» (buffeted)، [يوميات الحرب، ص112]. لم يقبل «وجوده-في-الموقف»، [يوميات الحرب، ص54]. ويتذرع بول بواقعه المفروض من خلال إنكاره حقيقة أنه ليس سوى ردّ فعلٍ على ذلك الواقع. اختار أن يرى نفسه كواقع، ككيان معين «تتلاطمه» الظروف. عندما نكفّ عن أن نكون مثل بول، ونقبل بوضعنا، نتوقّف عن أن نكون وعيًا مضطربًا، ونسيطر على أنفسنا ونصبح أشخاصًا أصيلين. المقطع التالي من يوميات الحرب لسارتر يلخّص بشكل أفضل من أي شيء آخر كتبه في أي وقت مضى اعتقاده بما تتضمنه الأصاله:

أن تكون أصيلاً يعني أن تعي تمامًا وجودك-في-الموقف، مهما كان هذا الموقف: الإدراك العميق أنه من خلال وعي حقيقي لوجود المرء-في-الموقف، فإنه يجلب الموقف تمامًا إلى الوجود من ناحية، والواقع الإنساني من ناحية أخرى. وذلك يفترض مسبقًا دراسة صبورة لما يتطلبه الموقف، ثم طريقة إلقاء الذات فيه وتحديد ماهيتها على خلفيته 'ليكون-من-أجل' هذا الموقف. [يوميات الحرب، ص54].

تخيّل واقفًا بديلًا يكون فيه بول أصيلاً. كيف يتصرّف بول الأصيل؟ يدرك بول الأصيل أنّ وضعه الحالي يتطلب منه أن يلعب دور الجندي بالكامل. هذا لا يعني أن يتظاهر بأنه جندي. إنّ التظاهر بكونه جنديًا هو ما يفعله بول المزيف من خلال اعتبار نفسه مدنيًا في زئ عسكري. ومن خلال لعب دوره بصفته جنديًا إلى



أقصى حد، يهدف بول الأصيل إلى أن يكون جنديًا على طول الخط، ويجعل نفسه «مناصراً» لوضعه العسكري، ويعي نفسه في هذا الموقف.

إلا أنه لا يفكر بنفسه كجندي من حيث كونه «جنديًا»، كما أنه لا يعتقد أيضًا بأنه جندي بمعنى أنه يعتقد أنه شيء آخر عدا عن كونه جنديًا؛ شيء آخر تمامًا غير ذلك. ويمكن قول الشيء نفسه عنه كما قيل سابقًا عن نادل سارتر: إنه يمتص نفسه في أدائه لسوره إلى الحد الذي يجعله لا يفكر في حقيقة أدائه. لقد أصبح أداؤه وموقفه تجاه نفسه ينطوي على تعليق عدم التصديق.

بول المزيف مليء بالأعذار والتبريرات. فبإعلانه أنه ليس جنديًا في الواقع، بل مدني في زي عسكري، يريد أن يُعفى من مسؤوليته عن الحالة التي هو فيها وأفعاله في تلك الحالة. ولكن إذا أراد شخص ما أن يكون صادقًا ونزيهاً، فعليه أن يعترف بأنه لا توجد أعذار أو تبريرات لأفعاله؛ وحتى لو كانت هناك أعذار ممكنة لبعض أفعاله، لأن الناس ليسوا مسؤولين تمامًا عن كل ما يفعلونه، فإنه لن يخلق أي أعذار أو تبريرات. لكي يكون الشخص أصيلاً يجب أن يقاوم بفعل الإرادة أي رغبة في اختلاق أعذار أو تبريرات. يقول سارتر: «طبعًا، إنها ليست مسألة اعتراف بعدم امتلاك الشخص لأي عذر، بل أيضًا الرغبة في ذلك»، [يوميات الحرب، ص 113]. لعله يمكن في بعض الأحيان تبرير الأعذار، وربما لا يمكن تبريرها أبدًا، الفلاسفة الوجوديون منقسمون حول هذه المسألة. ما يهم، إذا كنت ترغب في الوصول إلى الكأس المقدسة للأصالة، عليك التوقف تمامًا عن اختلاق الأعذار مثل مدمن الكحول الذي تم تأهيله، والإقلاع تمامًا عن شرب الكحول.

لا يعي بول الأصيل فقط أنه لا مجال لاختلاق الأعذار لعدم أدائه دور الجندي في وضعه الحالي، بل هو لا يريد أن يكون هناك أي أعذار. لكي يكون بول أصيلاً حقًا، عليه أن يعي تمامًا وجوده في الموقف من دون ندم. إذا كان بول الأصيل لا يريد أن يكون حيث هو، فسوف يغادر من دون ندم، ويواجه عواقب الهجر من دون ندم. وإذا بقي، سيتحمل مسؤولية بقائه ويلقي بنفسه في صلب الأمور. حاول سارتر، كما يروي في يومياته عن الحرب، أن يفعل ذلك. فبدلاً من الشكوى من كونه مثقفاً

باريسيا متحضراً أجبرته الظروف على الانضمام إلى وحدة عسكرية منفية في مكان لا يعرفه إلا الله، حاول الاستفادة إلى أقصى حد من وضعه، وتكريس نفسه من دون ندم على أداء دوره الحالي كجندي - وإن كان جندياً لديه القليل من الواجبات، وكان في الغالب يتمتع بحرية القراءة والكتابة لمدة ست عشرة ساعة في اليوم. كان لدى سارتر الكثير من الوقت خلال «الحرب الزائفة والخُلبية» التي سبقت الغزو الألماني لفرنسا العام 1940، ومن المفترض أنه كتب مليون كلمة خلال ثمانية شهور.

إنّ الفكرة القائلة بأنّ الحياة الأصيلة تتضمن العيش من دون ندم هي فكرة مركزية في رؤية نيتشه للأصالة. وسنلقي نظرة على ما يقوله نيتشه بعد قليل.

### الحزبة كقيمة

تنطوي الأصالة على تصالح المرء مع حقيقة أنّه لن يكون متصالحاً مع نفسه أبداً، وأنه لن يصبح أبداً نوعاً من الأشياء التي لم تُعد بحاجة إلى اختيار ما هي عليه. لكنّ المدهش أنّ الأصالة لا تنطوي على تخلي الشخص عن الرغبة في المصالحة، وفي الجوهرية، وفي الأساس. إنّ الرغبة في الحصول على أساس؛ ليكون أساسه الخاص، أمرٌ أساسي وحيوي للإرادة البشرية لذلك لا يمكن التخلي عن هذه الرغبة أبداً. يقول سارتر: «إنّ القيمة الأولى للإرادة وهدفها الأول هو: أن تكون أساسها الخاص، ويجب ألا يفهم ذلك كرغبة نفسية فارغة، بل يجب فهمه على أنّه بنية متعالية متجاوزة للواقع الإنساني»، [يوميات الحرب، ص 110]. إنّ أي محاولة للتخلي عن الرغبة في التأسيس تنهار أمام مشروع العدمية. وفي محاولته للهروب من الرغبة في التأسيس، لا يمكن للشخص إلا أن يهدف ليكون لا شيئاً بتاتاً.

بعيداً عن صفاء النية، الشخص العدمي الذي يخبر نفسه أنّه لا شيء في الحقيقة، هو شخص سين الثية. يتجلى سوء نيته في اعتقاده الخاطئ والزائف بأنه لا وجود له كما هو، لا شيء-بذاته، في حين أنّ اللاشيء في الواقع يكمن في كونه لا شيئاً سوى علاقة بالعالم الذي يدركه. أن يعتقد الشخص أنّه في أعماقه لا شيء بذاته يعادل الاعتقاد بأنه في أعماقه شيء ثابت ومصمّم. ونظراً لأنّ كلا الاتجاهين ينطويان على اعتبار المرء نفسه كأننا متصالحاً مع ذاته من دون الاضطرار إلى أن

يختار ماهيته، فإن كلا الموقفين متكافئان في درجة سوء النتيجة.

تقارن سيمون دو بوفوار في كتابها *أخلاقيات الغموض The Ethics of Ambiguity* بين العدمي الذي يريد أن يكون لا شيئاً والشخص الجاد الذي يسعى إلى محو شخصيته عن طريق التعامل مع نفسه كشيء محدد بالكامل من خلال الثقايد والأعراف الاجتماعية.

يمكن أن يؤدي الفشل الجذبي في بعض الأحيان إلى اضطراب جذبي. إذ يقزر الإنسان أن يكون لا شيئاً، مدرّكاً أنه غير قادر على أن يكون أي شيء. وسنسمي هذا الموقف عدمياً. العدمي قريب من روح الجدّة، لأنه بدلاً من أن يعي سلبيته كحركة حية، فإنه يتصوّر فناءه بطريقة جوهرية. إنه يريد أن يكون شيئاً، وهذا الشيء الذي يحلم أن يكونه ليس سوى نوع آخر من أنواع الكينونة. [أخلاقيات الغموض، ص 52].

لذلك، لا يزال مشروع الأصالة مدفوعاً بالبحث عن الجوهرية والأساس، ولكنه يختلف بشكل حاسم عن سوء النية في ذلك، كما يقول سارتر: «إنه يجمع ما هو، في البحث، فراذا وهروباً» [يوميات الحرب، ص 112]. فماذا يقصد بذلك بالضبط؟

ما يقصده سارتر هو أنّ الشخص الأصلي لا يهدف إلى المصالحة، والتأسيس والجوهرية، عن طريق هروب غير مُجد من حرّيته. بل إنّه يهدف بدلاً من ذلك إلى الموضوعية من خلال تأسيس نفسه باستمرار على إثبات حرّيته وتأكيدّها. إنّه يأخذ تأكيد الحرية وإثباتها كمبدأ أساسي أو قيمة قصوى. فهو يسعى إلى الاعتراف بحرّيته غير القابلة للتصرف بدلاً من الهروب من حرّيته المحتومة على أمل أن يصبح شيئاً ثابتاً.

مشروع الأصالة في الواقع أكثر نجاحاً في تحقيق نوع من الإثبات والجوهرية من مشروع الزيف، لأنّ مشروع الأصالة يصلح بين الشخص وما هو عليه فعلاً؛ كائنٌ حُرٌّ في الأساس، في حين أنّ مشروع الكذب أو الزيف هو فقط هروب الشخص مما هو عليه حقاً نحو هوية لا يمكن تحقيقها في عالم الأشياء. في الهروب من الحرية لا يبني الإنسان أساساً، ولكنه بافتراض حرّيته، يؤسس للحرّية نفسها كأساس. وبافتراض حرّيته «يصبح» ما هو عليه -حُرّاً- بدلاً من أن يفشل في أن يصبح ما لا

يمكن أن يكونه -غير حَزَ- بعبارة أخرى لا يمكن إشباع الرغبة بالثبات إلا باعتناق الحزينة لأن الحزينة هي الشيء الوحيد الذي يميز الشخص الثابت: «وبالتالي الأصالة هي قيمة ولكنها ليست أساسية. إنها تقدّم نفسها كوسيلة للوصول إلى الجوهرية»، [يوميات الحرب، ص112].

من المهم ملاحظة أن شكل الإثبات والجوهرية الذي تم التوصل إليه من خلال الأصالة ليس ثابتًا. كما سبق وأسلفنا، من المستحيل منطقيًا أن يحقق الوعي حالة ثابتة في حين أن جميع المحاولات للقيام بذلك تنطوي على سوء نية. الجوهرية التي تحققت من خلال الأصالة لا تتحقق بالوعي مرة وإلى الأبد، إنها جوهرية يجب أن تستمر دائمًا ويُعاد تكوينها. لا يمكن للشخص أن يكون أصيلًا فحسب، بل يجب أن يكون أصيلًا. بمعنى أن عليه أن يسعى باستمرار ليكون أصيلًا من دون أن يكون قادرًا على أن يصبح شيئًا-أصيلًا. إذا اعتقد الشخص بأنه أصيل بنفس الطريقة التي تكون فيها الضخرة «صخرة»، فإنه لم يَعد أصيلًا وانزلق حتمًا في فخ سوء النية. الأصالة ليست الأساس الدائم الذي يختار الشخص تأسيسه في وقت معين مرة وإلى الأبد، بل هي ما يسميه الفلاسفة الوجوديون بالأساس الثابت الذي يتعين على الشخص المحافظة عليه باستمرار من خلال اختيار الاستجابات الحقيقية لموقفه.

### مثالب أن تكون أصيلًا

عنوان هذا الكتاب: كيف تكون وجوديًا؟، ولكن، الآن فقط، بات واضحًا أنه من غير الممكن أن تكون وجوديًا حقيقيًا؛ أن تكون أصيلًا. وكدث أشعر برغبة في الاعتذار عن تضليل الناس، ولكنني أعتقد بأن التفسير ما كان ليصبح منطقيًا بالكامل حتى الآن. لا يمكنك أبدًا أن تتحوّل إلى وجودي حقيقي - اقرأ الكتاب، واجتز الاختبار، واحصل على الشهادة. البطل الأولمبي هو بطل رياضي لمدة أربع سنوات حتى لو لم يركض في سباق آخر، لكنّ الشخص الأصيل يجب أن يركض في سباق الأصالة طوال الوقت. إنه صادق فقط عندما يتصرّف بشكلٍ أصيل، ولا يمكنه أبدًا النظر إلى أمجاده أو يعتقد بأنه أصيل. إن اعتقاده بأنه أصيل يعني الاعتقاد بأنه شيء-أصيل، وكما رأينا سابقًا، أن يعتقد شخص بأنه نوع من الأشياء هو سوء نية.



إن مجزء التفكير: «أنا أصيل» يحول دون تحقيق الشخص للأصالة. وتبدو هذه مشكلة حقيقية بالنسبة لأي شخص يحاول أن يفكر عن عمد في طريقه نحو الأصالة، مشكلة حقيقية لكل من يأمل في تحقيق الأصالة من جزاء قراءة هذا الكتاب! الأمل الوحيد الذي يمكنني رؤيته يلوح في الأفق هو أنك عندما تنتهي من قراءة هذا الكتاب، فسوف تتبزع به لمنظمة أو كسفا م أو تعرضه للبيع في المزاد العلني على موقع إيباي، ثم تحاول نسيان كل شيء عنه عندما تبدأ في التصرف بإخلاص. على الرغم من تعليقاتي الإيجابية في مكان آخر من هذا الكتاب، لا يمكنني التخلص من الشك المزعج بأن المثقفين لديهم مشكلة حقيقية حين يتعلق الأمر بالسلوك الأصيل، وذلك لأنه يبدو لي أن أي شخص لا يستطيع التصرف بأصالة إذا كان يعتقد بأنه يفعل ذلك. قد تكون هناك ثغرة صغيرة في هذه المشكلة وسأعالجها قريباً، تتعلق بكيفية تفكير الشخص حول مصداقيته وأصالته.

الأصالة ليست حياة أو جوهراً، إنها الطريقة التي يختارها الشخص للزء على واقعه المفروض وهو يختارها بنفسه. الأصالة هي المهمة المستمرة لاختيار ردود الأفعال التي تؤكد على الحرّية والمسؤولية بدلاً من الزدود التي تدل على الهروب منهما. يتولى الشخص الأصيل مهمة مقاومة الانزلاق في مستنقع سوء النية الذي يهدد كل مسعى إنساني. قلت إن الأصالة تنطوي على العيش من دون ندم. إذا كان الأمر كذلك، فإن الاعتراض التالي في ما يتعلق بإمكانية الأصالة نفسها يطل علينا بوجهه القبيح، ويمكننا القول إن الأصالة مستحيلة، لأنه من المستحيل العيش من دون ندم. ويبدو أن الندم جزء لا يمكن تجنبه من الحالة الإنسانية، وذلك لأن كل من لديه القدرة على تخيل البدائل لا يملك إلا أن يتمنى، في بعض الأحيان على الأقل، أنه اتخذ خياراً مختلفاً. والزد المحتمل على هذا الاعتراض هو أنه لا يظهر استحالة الأصالة، بل هي أمر يصعب تحقيقه ببساطة. إذا كان يمكن الشخص أن يكون أقل نذماً، كما هو الحال بلا شك من خلال استخدام استراتيجيات مختلفة مثل مصادات الاكتئاب، والعلاج النفسي، أو دراسة الفلسفة الوجودية، ثم يمكن القول إن لديه القدرة على السيطرة على نفسه تماماً وعدم الندم على أي شيء، وربما يمكن أن يصبح مثل دوق ولينغتون الذي عبّر عن سياسته التي لا يندم عليها في مقولته

الشهيرة: «لا تعتذر أبدًا، لا تبرّر أفعالك حتى».

قد يكون تحقيق مهمة السيطرة الذاتية الكاملة والتغلب على الذات في حياة واحدة أمرًا بالغ الصعوبة، وخاصة بالنسبة للأشخاص الذين نشأوا في ثقافة التبرير والندم. ومع ذلك، من المؤكد أنّ هذا المثل البطولي الأعلى يستحق السعي من أجله لأنه من الأفضل دائمًا أن تكون واقعيًا، وأن تحكم السيطرة على الأمور وتتخذ موقفًا بدلًا من أن تكون مجرد وعي مضطرب وهائج يتقاذفه كل شيء وكل شخص. هذا أفضل، ليس أقله، لأن الشخص الذي يجاهد باستمرار لمواجهة واقعه وتجاوزه، الشخص الذي يجاهد باستمرار -بهذه الوسيلة- لمواجهة نفسه وتجاوزها يكتسب في طريقه النبل واحترام الذات. من ناحية أخرى، فإن الشخص الجبان، الذي يعيش في حالة من الندم، ويرفض مواجهة وضعه وواقعه في هذا الموقف، لا يعرف إلا ضعفه وشعوره بالهزيمة، وافتقاره للنبل والكرامة.

هل تتذكر النبل والكرامة؟ إنهما فضيلتان ماتتا معًا في وقت ما خلال القرن العشرين. يبدو أنّ السادة الإنجليز من المدرسة القديمة كانوا يتمتعون بقدر كبير من الاثنين. ولا يتحلّى أيّ من المشاهير الصغار الذين يفتقرون إلى الموهبة ويظهرون في برامج الواقع إلى أيّ فضيلة منهما. اليوم، لا نرى النبلاء إلا في الأفلام التي تدور حول العهد الروماني والعصور الوسطى، كما أنّ الكرامة لا تتعلق إلا بالمرضى المستن الذين ينتظرون وعاء البول في أسرتهم. يجب استعادة خصال النبل والكرامة كفضيلتين جوهريتين، مع التركيز أقل على التعاطف والتسامح مع الفشل والإهمال واحتقار الذات. أصبح اليوم من السهولة بمكان تبرير إخفاقات وزلات العديد من الأشخاص الجشعين والكسالى وغير المسؤولين والجاهلين المتعمدين الذين يلومون الآخرين، ويشكون دائمًا في أنهم بذلوا قصارى جهدهم في الوقت الذي من الواضح أنهم لم يفعلوا ذلك.

ذات مرّة، قال ذلك النبيل والشجاع ونستون تشرشل: «لا يكفي أن نبذل قصارى جهدنا، في بعض الأحيان يتعيّن علينا القيام بما هو مطلوب منا فقط». لقد أدرك أنّ قول «لقد بذلت قصارى جهدي» غالبًا ما يكون عذرًا مثيرًا للسّفقة، لإظهار سوء

النية، لأنه لا يقال ذلك إلا عندما يكون أفضل ما يمكن أن يفعله الشخص ليس جيدًا بما يكفي. الاعتراض المنطقي هو أن الشخص لا يستطيع أن يقدم أفضل من أفضل ما لديه إذا بذل قصارى جهده حقًا، لكن كيف لأي شخص أن يعرف أنه بذل أفضل ما في وسعه حقًا، وأنه لم يكن بإمكانه فعل ذلك بشكل أفضل؟ يتعامل الوجودي الحقيقي مع الحياة بموقف يمكن دائمًا أن يكون أفضل، أو على الأقل بموقف لا يقترب من فعل أفضل ما لديه إلا إذا حقق ما أراد تحقيقه، وهو بالتأكيد عدم الفشل في القيام بما هو مطلوب منه.

من الواضح أن هذا ليس إنصافًا بالنسبة للشجعان والجريئين الذين، مع أنهم حزكوا السماء والأرض وفجروا كل عصب، هزموا على يد خصم موهوب حقًا، أو احتمالات مستحيلة، أو ظروف خارجة عن إرادتهم، أو مجرد طقس داج، ولكن هذا كله لا يهم. الأولوية هنا هي ألا تكون عادلًا مع الجميع، وألا تتجنب قول كل ما هو قابس في حال تعرض شخص ما للإهانة، وأن تحدد موقفًا إيجابيًا تجاه الحياة، وبالتأكيد إن الموقف الوجودي الجيد والنبيل والكريم والوجودي في الحياة هو تجنب قول «لقد بذلت قصارى جهدي»، لأسباب ليس أقلها أنك لم تفعل ذلك، ولأنك على الأرجح سثبلي أفضل في المرة القادمة. النبيل والكرامة فضيلتان وجوديتان حقيقيتان.

\*\*\*

يعترف سارتر بأن سوء النية يهدد بتعطيل كل مسعى إنساني. يجب أن يكون الشخص إنسانًا خارقًا تقريبًا حتى يتجنب دائمًا الانزلاق إلى فخ سوء النية. ينزلق الشخص إلى سوء النية في اللحظة التي يتوقف فيها عن تجنب إغراءات العالم اللانهائية للانزلاق. إن سوء النية أمر مريب ومُغرٍ للغاية إلى درجة أن من الصعب جدًا مقاومته طوال الوقت.

بالنظر إلى الإغراءات اللانهائية التي يقدمها العالم للانزلاق إلى سوء النية والضعوبات التي يواجهها الناس في مقاومتهم للإغراءات، يأخذ سارتر مثالاً لرجل العائلة الذي دُعي إلى الحرب (يوميّات الحرب، ص 220-221). كان الرجل قبل



استدعائه برجوازيًا مُولًا تعامل مع حياته كما لو كانت تسير على سكة أو مسار ثمليه توقعات عائلته ومهنته. سمح لنفسه أن يكون ما يريده الآخرون. تفتح الحقائق الضارخة للحرب عينيه وتلهمه لوضع حياته على مسارها الصحيح. فيستعيد حزيبته ويصبح ذاته. يقول سارتر: «لقد قاده ذلك إلى التفكير في تلك المواقف (السابقة)، لأخذ قرارات من أجل المستقبل، ووضع مبادئ توجيهية للحفاظ على نزاهته وأصالته بينما يمضي نحو حوادث أخرى»، [يوميات الحرب، ص 220-221]. لقد أصبح محاربًا ويتمنى أن يظل محاربًا حتى بعد الحرب. رجل مستعد لأي شيء، رجل يتحمل المسؤولية عن نفسه، ولا يخلق الأعذار والتبريرات. شخص قوي، صامت، نبيل، محترم، يرفض المهادنة، أو قول ما يريد الآخرون سماعه فقط لمجرد أنهم يريدون سماعه. فمقاومة قراره النبيل لا تنبع من داخله بل من العالم المحيط به ومن ماضيه. وعلى حدّ تعبير سارتر نفسه: «لا تنبع المقاومة من بقايا الزيف وعدم الأصالة، التي قد تبقى هنا وهناك في وعي سيبئ مُفبّرك، بل ببساطة من حقيقة أن مواقف السابقة تقاوم التغيير كاشياء»، [يوميات الحرب، ص 221].

تأتي زوجته، التي لا يزال يكنّ لها حبًا جفًا، لزيارته على الجبهة مع كل التوقعات التي لطالما حققها لها في الماضي. ومن دون أيّ جهد أو سوء نية يتصرّف بشكلٍ مختلفٍ تجاهها، ببساطة لأنه مختلف. ومع ذلك، فإنّ توقعاتها تقدّم له صورة عن ذاته السابقة المزيفة. هذا هو الاختبار الحقيقي لأصالته ومصداقيته المكتشفة حديثًا لأنه «لا يستطيع العودة إلى أخطائه القديمة تجاه تلك المرأة من دون أن ينهار بضربة واحدة، في انزلاق متهورٍ إلى عالم الزيف وعدم الأصالة»، [يوميات الحرب، ص 221]. حبه لزوجته يعني أنه من المحتمل أن ينزلق إلى عدم الأصالة من خلال محاولته وسعيه للتوافق مع توقعاتها والامتثال لها، «لأنه يفترض أن الكائن الذي يتوقع منا أن نكون غير واقعيين وغير أصيلين سوف يجفدنا زيفًا حتى النخاع، من خلال إحياء حبنا القديم»، [يوميات الحرب، ص 221].

يمضي سارتر في القول إنّ هذا الزيف «زيفٌ مفروض، من السهل، إنما من المؤلم، الدفاع عن النفس أمامه»، [يوميات الحرب، ص 221]. ولكن إذا كان الزيف المفروض أمرًا مؤلفًا ولا يمكن مقاومته، فكيف يمكن أن تكون مقاومته سهلة؟ إذا كان الرجل



بسبب حبه لزوجته يخضع لزيف مفروض، فلزبما من الضعب عليه مقاومة زيف مفروض عليه كما هو الحال بالنسبة له عند مقاومة حب زوجته.

يجيب سارتر أنه في الواقع من السهل على الرجل أن يتوقف عن حب زوجته وأن يقاوم ذلك الزيف المفروض لأن الحب هو مجرد اختياره أن يكون في الحب. لكن هل يستطيع أي رجل حقًا أن يختار التوقف عن حب زوجته؟ هل كان سارتر محققًا في إصراره على أن الحالات العاطفية خالية من أي زخم خاص بها، أم إن سارتر القديم، مرة أخرى، يأخذ أطروحة حريته وقدرته على الاختيار المتطرفة ويمضي بها إلى أبعد حد؟ سأبتعد عن الإجابة عن هذا السؤال المعقد بالقول إن الإجابة عنه لا تزال موضع نقاش كبير بين المهووسين بسارتر.

إن الصعوبات التي تواجه الشخص الذي يسعى خلف الوجود الحقيقي والمستدام صعوبات هائلة. ويعترف سارتر في كتابه *يوميات الحرب* بفشله في تحقيق وجود حقيقي ومستدام. «أنا لست أصيلاً، لقد توقفت على عتبة أرض الميعاد. لكنني على الأقل أوضح معالم الطريق إليها، ويمكن للآخرين المضي إلى هناك»، [يوميات الحرب، ص 62].

ومع ذلك لا يذكر سارتر لماذا يجب على الآخرين أن يحققوا ما فشل هو، من بين جميع الناس، في تحقيقه. إذا كان بطل الأصالة العظيم، بقوة إرادته الهائلة، وقوته العقلية الفائقة لا يستطيع تحقيق الوجود الأصيل، فماذا تبقى لنا من أمل؟

ملخص سريع: الوجود الأصيل هو مسعى يجب إعادة تأكيده باستمرار. الإنسان أصيلاً فقط بقدر عمله الحالي الذي يقوم به. وحتى لو كان أصيلاً لمدة أسبوع كامل، إن لم يكن أصيلاً الآن، فلن يكون أصيلاً أبداً. وبالنظر إلى إغراءات العالم اللانهائية لسوء النية، وصعوبة مقاومة الندم والزيف المفروض، وحقيقة أن العادة وتوقعات الآخرين تشكل حياة الشخص بقدر ما هو قادر على الاختيار، فمن الصعب جدًا على أي شخص أن يحافظ على أصالة أي شيء مهم لفترة طويلة من الزمن. معظم الناس على الأرجح قادرين فقط على تحقيق الأصالة من حين لآخر. ومع ذلك، فإن الأصالة مثال وجودي يستحق النضال وبذل الجهد من أجله.

إن السعي خلف الأصالة كما يراه معظم الفلاسفة الوجوديين يتطلب من الشخص أن يكون مُدرِّكًا فكريًا لحقائق معينة عن الحالة الإنسانية. فلتأكيد الحرية مثلًا يبدو أنه يجب على الشخص أولاً أن يدرك عدم جدوى محاولة أن يكون متصلحًا مع ذاته، ومحاولة أن يكون شيئًا لا يتعين عليه الاختيار. عندما ينتقد الفلاسفة الوجوديون شخصًا بسبب زيفه وعدم أصالته -لأنهم مولعون بالقيام بذلك- يبدو أنهم لا يدركون تمامًا أن الشخص قد لا يعي ببساطة أنه غير أصيل أو مزيف. قد يعتقد الشخص بصدق، ولا يعرف أفضل من ذلك، أنه يمكن أن يكون متصلحًا مع ذاته. ومن غير المرجح بطبيعة الحال أن يقدم إيمانه لنفسه بمثل هذه المصطلحات الفكرية. من المرجح أن يتخذ إيمانه شكل إيمانٍ بإمكانية إشباع جميع رغباته وتحقيق الاكتفاء الكامل. وبالمثل، إذا لم يكن الشخص مُدرِّكًا للحقيقة الوجودية بأنه مجرد كائن -في- وضعه، فسوف يؤمن حتفًا بأنه ما كان دائمًا وليس ما أصبح فجأة. وسوف يعتقد أنه مدنيٌّ متنكرٌ بزِيٍّ عسكريٍّ وليس جنديًا، إذا كان دوره المدني هو كل ما كان يعرفه قبل تجنيده. سيصير الفلاسفة الوجوديون على مواجهة هذا النوع من التقد على أن الأمر يتطلب ذكاءً محدودًا فقط للتعرف على الحقائق الوجودية للحالة الإنسانية. إنها ليست حقائق غامضة مدفونة في أعمال فلسفية غامضة. الحياة اليومية درش صعب في مراوغة الرضا، وفجائية الوجود، وماهية الموت، وما إلى ذلك. إذا كان الناس لا يعون هذه الحقائق الوجودية والآثار المترتبة عليها، فليس ذلك لأنهم غير مطلعين، بل لأنهم يرفضون مواجهتها. ذلك لأنهم يمارسون ما يسمّى بالثجاهل المتعمد بدافع الجبن وسوء النية.

في معظم الحالات، لا يرى الناس الحقائق الوجودية للوضع الإنساني ليس لأنهم يفتقرون إلى الذكاء، بل لأنهم لا يريدون رؤيتها. وحقيقة أنهم لا يريدون رؤيتها تعني طبقًا أنهم رأوها بالفعل. وبعد رؤيتهم لها أصبحوا قلقين جدًا بشأنها، فهم يرغبون بشدة في تجنب رؤيتها مرةً أخرى. والطريقة التي يتجنبون بها رؤيتها مرةً أخرى هي عن طريق اللجوء إلى سوء النية.

كان هناك ذات مرّة امرأة توفّي والدها، كانت من ذلك النوع من النساء التي تصر على أن تكون هادئة ومتفائلة، لذلك عندما قدّم لها أصدقاؤها تعازيهم، أجابت أنها كانت تأمل ألا يحدث لهم الشّيء نفسه أبدًا. لكن، طبعا، الذي لا يموت أولاً سوف يعاني من فقدان أحد الوالدين أو كليهما. وإذا بدا ذلك كالأمر غير لائق، فهذا ناتج عن تأثير سوء النية. إنّ الإدراك بأنّ الحقائق الصعبة أمر مهين هو أحد أكثر تعابير سوء النية شيوعًا. وكما قيل، إنّ سوء النية هو التّجاهل المتعمّد. إنّ سوء النية استراتيجية للتغلب على المشكلات تساعد الناس على تجنب الأسى الشّديد والمعاناة. وإذا كان الأمر كذلك، فمن المفارقات أنّ هناك نوعًا من الحكمة في الجهل المتعمّد للأشخاص الذين يفتقرون إلى الشجاعة لمواجهة الحقائق الصعبة للحالة الإنسانية. كما يقولون في يوركشاير، من الحكمة أن تكون «غبيًا ولكن في الجانب الصحيح».

إذا كان السعي وراء الأصالة مسعى فكريًا بالضرورة، فإنّ المثقفين فقط هم من سيتمتعون بالأصالة والتزاهة، وهذه ليست الحقيقة طبعا. يبيّن لنا التاريخ أنّ حتى غير المتعلّمين يناضلوا من أجل نيل حريّتهم، تمامًا كما بيّن لنا أنّ هيدغر، الخبير في النظرية الوجودية، وقع في فخّ عدم أصالة وزيف النظرية في معاداته للسامية وانضمّ إلى حزب هتلر النازي.

على الرغم من أنّ السعي وراء الأصالة لا يلزم بالضرورة أن يكون مسعى فكريًا، إلا أنّ بعض الناس، مع ذلك، يُلهمون للسعي خلف الأصالة كنتيجة مباشرة لدراسة الفلسفة الوجودية. إذ تسلّط دراسة الوجودية الضوء على الحقائق الوجودية، وتفضح سوء النية وتؤكد على ضرورة الحرية والمسؤولية. يمكن أن تكون دراسة الوجودية رحلة تنويرية شخصيّة عميقة تؤثر على طبيعة الشخص ووجوده في العالم.

في عصر يُنظر فيه إلى الفلسفة غالبًا على أنّها مجرد مادة أكاديمية إلى جانب المواد الأكاديمية الأخرى، فإنّ القول بأنّ التّنوير الشخصي العميق يمكن أن ينتج عن الفلسفة قد يبدو مبالغًا فيه. وفقًا لمؤسسي الفلسفة الغربية في اليونان القديمة، إنّ تحقيق التّنوير الشخصي هو بالضبط الهدف من دراسة الفلسفة، والمشكلة مع

غالب الطلاب ومعلمي الفلسفة هي أنهم يعتقدون بأن الهدف من دراسة الفلسفة هو الحصول على شهادة جامعية في الفلسفة وليذهب الثنوير إلى الجحيم.

الفيلسوف اليوناني العظيم أفلاطون، على سبيل المثال، اعتبر أن الغرض من دراسة الفلسفة، وبالأخص فلسفته، هو الوصول إلى معرفة الحقائق الأساسية التي تمكن الإنسان من التمييز بين المظاهر والواقع. وعلى غرار الفلسفة الأفلاطونية، مع أن نظرتها للعالم مختلفة تمامًا، توفر الوجودية طريقًا للثنوير وطريقة للخروج من الكهف المظلم للجهل والمظاهر الزائفة. ويقارن أفلاطون في أشهر محاوراته، جمهورية أفلاطون، عملية الثنوير بصعود شخص من عالم الظلال داخل كهف إلى ضوء النهار في العالم الواقعي ورؤية الشمس.

كل هذا جيد وجميل، لكن الشكوك المزعجة التي أثارها سابقًا تظل ماثلة أمامنا: هل يمكن للشخص أن يصبح أصيلاً نتيجة لمسعى فكري؟ بالطبع، إن دراسة الفلسفة يمكن أن تمنحه كل أنواع النيات النبيلة، بالإضافة إلى مؤهلات مفيدة نسبيًا، ولكن ألا يُفسد تفكيره بأصالته -«أنا أصيل»- من فوره أي أصالة قد يحققها؟ وكما قيل، لا يمكن لأي شخص أن يكون أصيلاً ببساطة، عليه أن يتصرف باستمرار بأصالة، والاعتقاد بأنه أصيل هو تصرف غير أصيل. ولكن مرة أخرى، قد يكون شكّي المزعج ليس بهذه الخطورة بعد كل شيء. ما الخطأ في الشخص الذي يتصرف بأصالة مفكرًا: «هل أنا أصيل في الوقت الحاضر؟ وهل التفكير بذلك يجعل تصرفه مزيفًا حقًا؟ لننظر في حالة مقارنة:

بينما أساعد سيدة مُسِنَّة تحمل صندوقًا ثقيلًا على صعود الدرج، سوف أفكر أن «هذا عمل جيد اليوم، لقد قُمتُ بعملٍ جيد»، فهل من شأن ذلك أن يجعل من عملي تصرفًا أنانيًا؟ إنها مجرد فكرة تافهة وقد شجعتني ذات مرة سيدة عجوز قائلة: «لقد قمتُ بعملٍ جيد اليوم أيها الشاب». قد يبدو من السخف الاعتقاد أن تلك العجوز قد غيرت نوعية أفعالي ببساطة من خلال طرح هذه الفكرة الدنيوية في رأسي. إن موقفنا من أفعالنا مهم ويمكن أن يؤثر على صيغة ما نقوم به، ولكن لا ينبغي دائمًا أن نولي أهمية كبيرة للأفكار الغرضية والاعتباطية التي تنغرس في عقولنا أثناء



## الأصالة والآخرين

بالنظر إلى ما قيل حتى الآن في هذا الفصل عن الأصالة، يبدو أن هناك تناقضًا يحتاج إلى حل. من ناحية أخرى، قلنا سابقًا إنه لكي يكون الشخص أصيلاً يجب أن يعي وجوده في موقفه من خلال قذف نفسه بإخلاص وأمانة في موقفه. ومن ناحية أخرى، قلنا إن الأصالة تتضمن رفض العيش وفقاً لتوقعات الآخرين.

لنتذكر مثال سارتر عن البرجوازي السابق الممل الذي تحوّل إلى جندي والذي زارته زوجته على الجبهة. يجادل سارتر بأن الرجل يمكن أن يتوافق مع توقعات زوجته السابقة له من دون الوقوع في الزيف. ولكن كيف يمكن للإنسان أن يُلقى بنفسه في مواقف معينة من دون أن يتوافق مع توقعات الآخرين؟ إن التوافق مع توقعات الآخرين هو ما تحتاجه الاستجابة الملتزمة لحالات معينة. إذا أراد الرجل أن يضع نفسه، من صميم قلبه، في وضعه الحالي - لا في حرب، بل في لقائه بزوجه الحبيبة - عليه أن ينغمس فيها ويبدل جهداً ليرقى إلى مستوى توقعاتها منه كي يعزّيها ويخفّف عنها ويحافظ على علاقته بها. يمكن القول إن التصرف على هذا النحو سيكون بمثابة مُزاعاة، ولكن إذا كانت مُراعاة شخص ما تنطوي على معاملته بطريقة متعالية، فإن الرجل سوف يراعي زوجته أكثر بكثير إذا واجهها، بعد أن عانى من أهوال كئيبة وقاسية غير معروفة بالنسبة لها، ولذلك قابلها بطريقة متجهمة ومتعالية وقاسية.

لنفترض أن ذلك الرجل يرفض الانغماس مع زوجته ويقول لها: «لقد جعلتني هذه الحرب على تواصل مع حقيقتي، ولم أعد قادراً على التصرف كما كنتُ أفعل». الرّد المعقول على هذا التصريح هو أنه إذا كانت الحرب قد جعلته على اتصال مع نفسه بالفعل، فعليه أن يدرك بأنه خزّ في تكييف سلوكه مع متطلبات أي حالة. إن طرد الزوجة التي لا يزال يحبّها لأنه لا يستطيع السماح لنفسه بالتوافق مع توقعاتها السابقة عنه ليس سلوكاً بطولياً حقيقياً، بل سلوكاً أحمق وأرعن ومدمّر للذات. فالأصالة، كما قلنا سابقاً، هي مثال بطولي. كما تُظهر لنا الأفلام مراراً وتكراراً، فإن

البطل النموذجي هو عاشقٌ ومقاتل في الوقت نفسه، ويمكنه أن يحب ويقاتل وفُقا لمتطلبات الموقف. علاوة على ذلك، لن تتأثر قدرته على الحب بسبب قدرته على القتال والكرهية والعنف ومجابهة الأهوال، تمامًا كما لن تُضعف قدرته على القتال بسبب قدرته على الحب.

بعد أن أوضحت لهم الحرب العالمية الثانية مدى الترابط بين البشر، بدأ سارتر ودو بوفوار في الاعتراف بأن الأصالة تتضمن التوافق إلى حد ما مع توقعات الآخرين. واعترفاً في كتاباتهما بعد الحرب بأن درجة من التوافق الاجتماعي مطلوبة للفرد من أجل تلبية متطلبات معظم المواقف، لأن معظم المواقف هي مواقف اجتماعية بشرية إلى حد كبير.

يجادل الوجوديون بأن الناس مسؤولون عن الارتقاء إلى مستوى التوقعات الناتجة عن ظروفهم الاجتماعية والتاريخية. والشخص الذي يسعى للتملص من هذه المسؤولية برفضه أن يكون كائنًا في إطار زمانه يتصرف بسوء نية. إنه يتصرف وكأنه جزيرة ثابتة ومكتفية ذاتيًا موجودة خارج إطار المجتمع والعلاقات السياسية والتاريخ، بينما في الحقيقة هو شخص متجذّر في الوضع الاجتماعي والسياسي لزمانه وعصره ولا يمكن أن يوجد إلا في يومه وزمانه. إنها شرط وجودي للحالة الإنسانية كما قال جون دون: «لا يوجد إنسان بوصفه جزيرة كاملة بذاتها، كل إنسان هو قطعة من قارة، وجزء من الكل الأساسي»، [التأمل السابع عشر]. وبالتالي من الأصالة أن يعترف المرء بذلك، بوجود الآخرين وحرمتهم وحمية وجود علاقات وتعاملات معهم.

### نيتشه حول الأصالة: لا تندم على شيء

حان الوقت الآن، كما وعدتكم، للنظر في ما يقوله نيتشه عن الأصالة. على غرار سارتر، لدى نيتشه الكثير ليقوله حول ذلك، ومقدار لا بأس به مما يقول يشبه إلى حد بعيد ما قاله سارتر. حسنًا ليس مستغربًا أن يفكر الفلاسفة الوجوديون العظماء بالطريقة نفسها، خاصة وأن نيتشه كان له تأثير كبير على الوجوديين في القرن العشرين. كان نيتشه إحدى الشخصيات الفلسفية البارزة التي أثرت ولا تزال

تؤثر على الجميع، من د. ه. لورنس، إلى لورنس العرب، ومن اليهود المعزولين في غيتواتهم إلى الألمان النازيين، ومن المحللين النفسيين الفرويديين (بمن فيهم فرويد نفسه) إلى النوع الأكثر ذكاءً من مُدزبي كرة القدم الألمان. ويرجع ذلك جزئيًا إلى أن كتاباته تبدو وكأنها تُقدّم شيئًا للجميع. ومع ذلك، فإنّ السبب الرئيسي هو أنه مفكّر عميق وملهم يتعمق أكثر في تعقيدات وتفصيل الحياة من الباحث الأكاديمي العادي المنطقي والنمطي وغير المبتكر، ويُعدّ مصطلح «المفزّمة المنطقية» أحد المصطلحات التي استخدمها نيتشه لوصف «الإساءة». كان نيتشه مُفزّمًا بإهانة المفكرين الآخرين بذكاء في كتاباته. وسبب أن يجعله يحظى بشعبية كبيرة بين جميع المفكرين الذين لم يقدّموا بإهانتهم.

يخبرنا سارتر أنّ سوء النية هو اختيار عدم الاختيار. إنّه حزينة سلبية؛ الحزينة التي تنكر نفسها، وتقمع ذاتها. إنّ ممارسة الحزينة بشكل سلبي هو تبني ما يسقيه نيتشه الزهد المثالي. يبجل المثالي الزاهد قمع الذات وإنكارها قبل كل شيء ويمارس هذه العادة من أجل ذاتها وليس من أجل أي شيء آخر أو هدف آخر. الشخص الذي يتبنى الزهد المثالي لا يقدر العزوبة من أجل الصحة الجنسية أو العفة وراحة البال التي تجلبها معها، بل من أجل إنكار الذات الذي تنطوي عليه فقط. ويقابل الزهد المثالي عند نيتشه فكرة المثالية النبيلة. وتتضمن المثالية النبيلة التأكيد الإيجابي على الحرية. ويؤكد الشخص النبيل نفسه بشكل إيجابي على أنه كائن حُر. إنّه لا ينكر حرّيته ويقمعها، بل يتمتع بها وهو على دراية بها على الدوام. إنّه يفعل ذلك من خلال التصرّف بشكل حاسم، والتغلّب على الضعوبات، وتحمل المسؤولية، ورفض الندم، واتخاذ القرارات، والأهم من ذلك كله، اختيار قيّمه الخاصة. بالنسبة لنيتشه، الحزينة الإيجابية توسعية، وأحيانًا متهورّة وعنيفة. إنّها تنتصر بقوتها كإرادة إيجابية للقوة.

إرادة القوة، وهي فكرة أساسية في صلب فلسفة نيتشه، يمكن أن تكون إيجابية أو سلبية. إرادة القوة الإيجابية هي القوة كما تُفهم عمومًا: القوة التوسعية، بل وحتى المتفجرة. ومع ذلك، فإنّ نقيضها لا يزال هو إرادة القوة. الكائن الذي يرفض التوسع لا يزال يمتلك إرادة القوة. الجنود الذين ينسحبون بشكلٍ منظم يرفضون التوسع،

لكن هذا لا يعني أنهم فقدوا إرادة القوة لديهم. وبالمثل، فإن الشخص الذي يحافظ على قوته خلف جدارٍ حاجزٍ يمارس إرادة القوة في دعوة عدوه لبذل قوته وجهده في مهاجمة هذا الحاجز. يرى نيتشه أن المرء لا يمكن أن يكون إرادة قوة، تمامًا كما يرى سارتر أن المرء لا يمكن أن يكون حُرًا. وفي حين أن نيتشه لديه مفاهيم إرادة القوة الإيجابية والسلبية، إلا أن سارتر لديه مفاهيم الحرية الإيجابية للشخص المسؤول الأصيل والحرية السلبية للشخص غير الأصيل الذي يتصرف بسوء نية ويختار عدم الاختيار.

يجادل سارتر بأن الحرية يمكن أن تقدر نفسها كمصدر لجميع القيم. تنطوي هذه الحرية الإيجابية على نفس مبادئ المثالية النبيلة لنيته. إنها إرادة قوة إيجابية. ولا يحقق الإنسان تحولًا جذريًا نحو الأصالة عن طريق رفض وتطبيق ذاته السابقة من خلال سوء النية، ولكن من خلال التغلب على الذات القديمة وتجاوز قيمه السابقة، ليصبح صانعًا لقيمه الخاصة.

تنطوي فكرة سارتر عن التحول الجذري نحو الأصالة على نمو الإنسان إلى إنسان أعلى *Übermensch* عند نيتشه. يعني هذا المصطلح حرفيًا «ما بعد الإنسان» أو «الإنسان الأعلى» المعادل لـ«السوبرمان»، أي الرجل الذي تغلب على نفسه وتجاوزها، إذا كنت قد صادفت هذا المصطلح الألماني قبل أن يستحضر في ذهنك صورًا لجنود العاصفة النازيين ذوي الشعر الأشقر والعيون الزرقاء وهم ينتعلون أحذية «جاك» ويسيروا في تشكيل ضيق عبر بوابة براندنبورغ. بصفته صانعًا لقيمه الخاصة، يصنع الإنسان الأعلى نفسه، إنه فنان أو نحات حياته. يقول الفيلسوف اليهودي جاكوب غولومب (هذا غولومب وليس غولوم) في مقال كتبه بعنوان نيتشه حول الأصالة: «إرادة القوة جزء من البحث عن الأصالة- الرغبة في أن تصبح مؤلفًا حُرًا (من حدود الضرورة) لذاتك. يُعبر عن الإرادة المثلى للقوة من خلال الإنسان الأعلى الأصيل والمثالي»، [نيتشه حول الأصالة، ص 254].

وأيا كان ما يعتبره الشخص السلبي أو سيئ السمعة تجربة سيئة يجب نسيانها أو إنكارها، فإن الفنان أو المؤلف لحياته الخاصة، الذي يهدف إلى تأكيد حياته بشكل



إيجابي يُعزّف نفسه على أنه تجربة تعليمية ساعدته على صنع ذاته وجعلها أكثر قوّة وحكمة. إنه لا يندم على شيء لأن كل تجربة ساهمت في جعله كما هو. من وجهة نظر نيتشه، لن يندم حتى على صفاته الشريفة، أو ما يسقيه الآخرون صفاته السيئة. وبوصفها مصدرًا لقيمه الخاصة، فإنه يعيد تقييم صفاته وخصاله السيئة على أنها أفضل الصفات، وقدرته على القيام بذلك علامة حقيقية على أصالته. «المراحل الكبيرة في حياتنا هي هناك، حيث نجرؤ على أن نعيد تعميد صفاتنا الشريفة كأفضل صفاتنا»، [ما وراء الخير والشّر، 116، ص 97].

نقرأ في رواية الجريمة والعقاب\*، وهي رواية رائعة للكاتب الوجودي الروسي فيودور دوستويفسكي عن راسكولينكوف، الشخصية الرئيسية في الرواية، الذي يُقدم على قتل عجوز مُرابية لثيمة وشقيقتها بفأس في محاولة للهروب من فقره. ربما كان من الأفضل بالنسبة لراسكولينكوف المطالبة بأقساط الزعاية الاجتماعية، ولكن لم يكن هناك نظام ضمان اجتماعي بعد في سان بطرسبورغ في ستينيات القرن التاسع عشر. وبعد ارتكاب جرمي القتل هائئين، يقول راسكولينكوف لنفسه بأنه يجب أن يجاهد ليكون مثل نابليون، وهو رجل يتمتع بقوّة الشخصية لتبرير جرائمه. لسوء الحظ، وعلى عكس نابليون، يفتقر راسكولينكوف إلى الجرأة لتحمل مسؤولية عمله القذر ولا يهتمّ به أبدًا. على حدّ تعبير نيتشه، إنه يفتقر إلى الشجاعة «لاسترجاع الماضي وتحويل كل 'ما كان' إلى 'هذا ما أردته'»، [هكذا تكلم زرادشت، ص 161].

نظرًا لأنّ غرور راسكولينكوف وكبريائه لا يكفیان لتجاهل فداحة جريمته، فإنّ الوسيلة الوحيدة للهروب من ذنبه هي الانزلاق في وضع سوء نية يتبرأ فيه من نفسه بالتخلّي عن ماضيه. أنا لا أقول هنا بأنه لكي تكون صادقًا وأصيلًا عليك أن تقتل سيدتين عجوزين بفأس من دون أن تهتّزّ فيك شعرة؛ ولكن لكي تكون أصيلاً، يجب أن تتحمل المسؤولية عن جميع أفعالك مهما كانت، بدلاً من محاولة التبرؤ منها وتبريرها من خلال سوء النية والاعتراف والاعتقاد بأنك قد «وُلدت من جديد».

إنّ نبذ الماضي ومحاولة نسيانه بسوء نية وإعادة تعريفه من خلال تحقل مسؤوليته، هما استجابتان مختلفتان جذريًا. إذا كان المتحوّل الضامح إلى الأصالة

يرغب في الثقل على سوء النية فعليه أن يتحقل المسؤولية عن كامل ماضيه وبلا ندم. الشخص الذي يندم على تمثيه بأن يكون ماضيه مختلفًا، يتمنى لو لم يكن هو ذلك الكائن الحز الذي كان عليه. الإنسان الذي يندم يُخفق في تأكيد حرّيته بأكملها، وبالتالي حياته كلها باعتبارها من صنع حرّيته. يرى نيتشه أن أعلى تأكيد للحياة هو الرغبة في التكرار والعود الأبدي. ولكي يؤكد الشخص حرّيته وحياته كحالة صنع لحرّيته، عليه أن يتبنى إمكانية عيشها من جديد بكل تفاصيلها وبعدها لا نهائي من المرات. كتب نيتشه، بشكل جميل مقطعه الأكثر شهرة عن التكرار والعود الأبدي والذي يجب أن نقتبسه:

أثقل وزن: - ماذا عساك تقول لو أنّ شيطانًا تسأل يومًا أو ليلةً حتى داخل وحدتك الأكثر انزواءً وقال لك: 'هاته الحياة، مثلما تحياها الآن، ومثلما حييتها، سيلزمك أن تحياها مرةً أخرى ومرةً لا حصر لها، ولن يكون فيها شيء جديد، سوى أن كل ألم وكل متعة، كل فكرة وكل تأوه وكل ما هو مُثناه في الضغر والكبر في حياتك لا بد أن يعود إليك، وفي النظام نفسه والتتابع نفسه - حتى تلك الزتيلاء أيضًا، وضوء القمر هذا بين الأشجار، وهاته اللحظة، وأنا نفسي. إنّ ساعة الوجود الرملية الخالدة لا تُفتأ تُقلب رأسًا على عقب من جديد، وأنت معها، يا ذرة غبارٍ من الغبار!، ألن تُلقي بنفسك أرضًا، تصرّ أسنانك وتلعن الشيطان الذي قد يكلمك بهذا الشكل؟ أم سيحدث أن تعيش لحظة رائعة قد يمكنك فيها أن تجيبه: 'أنت إله، فما سمعت أشياء أروع من هاته قط! لو سيطرت عليك هذه الفكرة فستحوّلك، مثلما أنت، شخصًا آخر، أو ربما ستسحقك: والسؤال المطروح بخصوص كل شيء: 'هل تريد هذا مرةً أخرى ومرةً لا حصر لها؟' سيهبط بثقله على تصرّفك كأثقل وزن! أو كم سيلزمك من إظهار الإحسان تجاه نفسك وتجاه الحياة حتى لا ترغب في شيء غير هاته الأخيرة [التي هي] إثبات أبدي، هاته الأخيرة [التي هي] عقاب أبدي؟ [العلم المرح، 341، ص274-273]. (العلم المرح- ترجمة حسان بورقية- محمد الناجي). دار أفريقيا الشرق.

فكرة نيتشه القاسية والحادة هي أنك إذا لم ترغب في عيش حياتك مجددًا فأنت لن تعيش حياتك بشكلٍ صحيح، وهو يسألك: «لماذا ترغب القيام بهذا العمل الآن إذا

كنت لا تريد أن تقوم به مرة أخرى في حياتك التالية؟». من وجهة نظر ميتافيزيقية بحتة، إن فكرة العود الأبدي إشكالية للغاية: إذا كان العود الأبدي صحيحا، فيجب أن تكون هذه الحياة متطابقة مع الحياة اللانهائية التي عشتها وستعيشها، ولا يمكنك تغيير أي شيء فيها، وإن لم تتمكن من تغيير أي شيء، فهذا يعني أنه لا يمكنك أن تكون حزنا.

إن حقيقة اعتقاد نيتشه أننا نعيش حياتنا مرة أخرى لعدد لا نهائي من المرات قابلة للنقاش. يمكن القول إن ما يهمله ليس ما إذا كان التكرار أو العود الأبدي صحيحا أم لا، بل اختبار درجة الحمض الأخلاقي الحارق الذي تولده هذه الفكرة فينا.

إن إجابة نيتشه عن السؤال الأخلاقي الدائم: «كيف يجب أن أعيش؟»، هي: اطح للعيش بطريقة تجعلك تريدها أن تتكرر في كل لحظة من حياتك إلى الأبد. ويُسمي نيتشه ذلك «صيغته للعظمة»: «صيغتي لعظمة الإنسان حب القدر: *Amor Fati* وهو أن المرء لا يريد أن يكون شيئا بخلاف ما هو عليه، لا في المستقبل، ولا في الماضي، ولا في الأبدية»، [هذا هو الإنسان، ص 68]. عندما رفض راسكولينكوف ماضيه وتبذره كزوج قديم من الأحذية، فشل في تبني صيغة نيتشه للعظمة. وغني عن القول إنه لكي تُصبح وجوديا حقيقيا ولكي تُحقق وجودك الأصيل، عليك أن تتبنى صيغة نيتشه للعظمة. قرار صعب، ولكن هكذا هو الحال، ربما إلى الأبد.

### هيدغر حول الأصالة: الوجود-الأصيل- نحو- الموت

مارتن هيدغر، فيلسوف وجودي آخر ولديه الكثير ليقوله عن الأصالة، حتى لو فشل فشلا ذريعا في أن يكون أصيلا هو نفسه بسبب ميوله السياسية اليمينية. يرى هيدغر أن مشروع الأصالة ينطوي على شخص يؤكد الحقائق المقدرة للحالة الإنسانية. وفي هذه النقطة يشبه إلى حد كبير سارتر، وهو ليس بالأمر المفاجئ نظرا إلى أنه -بعيدا عن ميوله السياسيّة- كان صاحب ثاني أكبر تأثير على سارتر. بالمناسبة، كان التأثير الأكبر على سارتر هو هوسرل أستاذ هيدغر، لكنه لم يعلم سارتر، على الرغم من أن سارتر دَرَسَ هوسرل بعمق في إجازة لمدة تسعة شهور في

على أي حال، وكما رأينا، تؤكد نظرة سارتر عن الأصالة على افتراض الحزية وتأكيدها. ومن ناحية أخرى، يؤكد تفسير هيدغر على الأصالة على افتراض الفناء/العدم وتأكيده. الأصالة بالنسبة لهيدغر هي أساساً الوجود الأصيل - نحو الموت. كل هذا يبدو سيئاً، بل ومرعبٌ إلى حد ما، وهو في الواقع أمرٌ مُرَوِّعٌ بالمعنى القاموسي لـ «اهتمام غير عادي بالموت»، لكن ما يدركه هيدغر هو أن الناس يمكن أن يكون لديهم موقف أصيل أو غير أصيل تجاه حقيقة أنهم سيموتون. يشير هيدغر إلى كينونة كل إنسان على أنه «دازاين» *Dasein*، وتعني بالألمانية «الوجود-هناك». ويشير مصطلح «دازاين» إلى الحالة المكانية والزمانية الفريدة للشخص في العالم. يقول هيدغر: «الموت هو الإمكانية الوحيدة للدازاين»، [الكينونة والزمان، ص 307].

إن الاحتمال المستمر للموت في الوقت الحاضر، حتمية الموت في المستقبل، هو أمر مركزي وأساسي لكيان «الدازاين»، أو الكائن المتواجد-هناك، في العالم. إن حاضِر الإنسان هو ما هو عليه بحكم محدوديته، وهي محدودية ناشئة عن وعد الموت الذي يطارد الحاضر على الدوام. إن الوجود الأصيل - نحو الموت ينطوي على إدراك الشخص تماماً للطريقة التي يعيش بها وبأن وقته محدود، وأن موته لا مَفَرَّ منه. ومن خلال الاعتراف بأنه يجب أن يموت هو نفسه، بدلاً من مجرد الاعتراف بموت الآخرين، يتوقف الشخص عن النظر إلى نفسه بسوء نية كشخص آخر ببساطة ويدرك أنه موجود كإمكانية فريدة تماماً لموته المحتوم. يقول هيدغر: «إن الطبيعة غير العلانقية للموت، كما يفهم في الترقب، تضيي الظابع الفردي على الدازاين نفسه»، [الكينونة والزمان، ص 30].

ليس غريباً أن يميل الناس إلى اكتساب موقف أصيل «يجب أن أموت» مع تقدّمهم في السن. إن إدراك المرء لحقيقة وفاته جزء أساسي من نموّه، وتحوّله إلى شخص بالغ وأصيل. ومن ناحية أخرى، يميل الشباب إلى أن يكون لديهم موقف غير أصيل «الآخرون يموتون». ربما تنقسم الأجيال الأكبر سناً والأصغر سناً بناءً على موقفهم من الموت والفناء أكثر من حقيقة أن القسم الأول يحبّ بدلات الثويد والهدوء،



بينما يفضل القسم الثاني القلنسوة وموسيقى الزاب. يميل الشباب، في المجتمعات الغربية على الأقل، للنظر إلى المسنين باعتبارهم فئة منفصلة تمامًا عن بقية البشر باعتبارهم كائنات بغيضة ستظل طاعنة في السن، وتتحلّل وتقترب من الموت على الدوام، وليس باعتبارهم أشخاصًا كانوا في يوم من الأيام شبابًا يصادف أنهم ظلّوا على قيد الحياة لفترة كافية لكي يبلغوا سنّ الموت. وإنّ الرّفص والازدراء اللذين غالبًا ما يبديهما الشّباب تجاه كبار السنّ يعزّزان هذا الانقسام عن المسنين وهو أحد أعراضه.

سجّر شابّ مرّةً من رجلٍ بلغ السبعين من العمر. أجاب الرجل العجوز «لا تضربني. أنا متأكّد أنّك تأمل أن تعيش لتصل إلى عمري كما كنتُ أنا عندما كنتُ في مثل سنّك». طبعًا، يقول بعض الشّباب أشياء مثل: سأقتل نفسي قبل أن أتقدّم في السنّ، من الأفضل أن أحرق نفسي على أن أتلاشى! إنهم لا يعنون ذلك حقًا، ليس أكثر مما يعرف الأطفال الضغار عفا يتحدّثون عنه عندما يقولون: «لن أموت، سأعيش إلى الأبد». نظرًا لخبرتهم المحدودة في الحياة، فإنّ الشباب مليئون بالهراء، ولا يسعهم سوى ذلك، أو كما يقول الكتاب المقدس ببلاغة أكبر:

«لما كنتُ طفلًا، كطفلٍ كنتُ أتكلّم، وكطفلٍ كنتُ أدرك، وكطفلٍ كنتُ أفكر، ولّما صرّث رجلاً، تذكّث ما هو للطفل»، [رسالة كورنثوس الأولى، 13].

يميل الشّباب إلى النظر لأنفسهم كمجموعة متميّزة أيضًا، باعتبارهم خالدين سيقون شبابًا إلى الأبد، بدلًا من اعتبار أنفسهم أشخاصًا سيتقدّمون حتفًا في العمر ويقتربون من الموت إذا بقوا على قيد الحياة لفترة كافية. ولا شك أنّ هذا الموقف هو جزء من غطرسة الشّباب وعنفوانهم بحجّة أنهم غير ناضجين وسُدج. إنّ عدم التفكير بأنهم سيكبرون ويتقدّمون في السنّ ويموتون بالنهاية هو سفة من سمات الشّباب، ولا شك أنّ كبار السنّ والمستنيرين يحسدونهم على هذه السفة. ومع ذلك، فإنّ موقفهم يثسم بسوء نيةٍ لأنّه ينطوي على النّظر إلى كل من الشّباب والشيوخ كحالات ثابتة وليس كمراحل من نفس عملية الصيرورة القاسية التي لا هوادة فيها.

إنه لمن سوء النّية أيضًا أن ينظر الشّباب إلى كبار السنّ باعتبارهم أقرب إلى

الموت منهم. حسنًا، لا أحد يعيش أكثر من مئة عام في هذه الأيام، لذا فإن كبار السن يقتربون من الموت بمعنى ما، لكن الموت -تلك الحافلة التي قد تصدمك غدا- احتمال قائم دائمًا أمام الناس في أي عمر. قد يعيش الزجل الذي بلغ السبعين أكثر من الشاب الذي يسخر منه بسبب كبر سنه، خاصة إذا كان ذلك الشاب من راكبي الذراجات النارية. يصف سارتر الموت بأنه خدٌّ مرئٍ يكون أقرب أو أبعد تبعا للظروف. إذا كان شخص ما يعاني من حصى في الأمس، فقد كان أقرب إلى الموت أمس مما هو عليه اليوم بعد أن تعافى.

ولا يتوقّف الشخص عن معاملة نفسه كما لو كان نسخة من الرجل الذي يليه ومن جميع البشر إلا بإدراك أنه الاحتمال الفريد لوفاته. بالنسبة لهيدغر، هذا هو المعنى الحقيقي للأصالة. الشخص الأصيل، مثل الثحفة الأصليّة، مثل المقال الأصيل، حسن النية وليس مجرّد نسخة طبق الأصل. على الرّغم من أنّ حياته قد تشبه حياة العديد من الناس، إلا أنه مع ذلك هو نفسه وهو يُعرّف نفسه على أنه الشخص ذاته.

فقط عندما يدرك الشخص تماما أنّ مصيره هو الموت، ويتصرّف وفقًا لهذا الإدراك، يبدأ حقًا في الوجود والعيش الحقيقي. وفي تحقّل مسؤوليّة موته، هو يتحقّل مسؤوليّة حياته والطريقة التي يختار أن يعيش وفقها. إنّ وعي الفناء والتأكيد عليه حقًا هو التغلّب على سوء النية. ويتوافق هذا الزأى بدقة مع الانعفاء القائل بأنّ الأصالة تنطوي على العيش من دون ندم. ويستتبع ذلك تأكيد الشخص على موته وفنائه الخاص أيضًا. ولا ينطوي هذا التأكيد على الاستغراق باحتمال الموت -إنها ليست رغبة بالانتحار- ولكنه ينطوي على اعتراف الشخص بمحدوديّة حياته وما يترثب على ذلك من آثار على الطريقة التي يعيش بها حياته.

من السمات الرئيسيّة التي يتحلّى بها إنسان نيتشه الأعلى هي اعترافه وقبوله لموته. الإنسان الأعلى هو الشخص الذي، بالرّغم من إدراكه الكامل لفنائه، لا يسمح لخوفه من الموت أن يمنعه من المخاطرة وعيش حياته على أكمل وجه. تقول سيمون دو بوفوار إنّ هذا الموقف تجاه الموت سمة أساسيّة للشخص المغامر الذي يُقدّر تأكيد حريته فوق الحفاظ الخجول على الذات. «حتى موته ليس شرًا لأنّه

إنسان بقدر ما هو فإن فقط: يجب أن يفترضه كحد طبيعي لحياته، كالخطر الذي تنطوي عليه كل خطوة يخطوها»، [أخلاقيات الغموض، ص82]. إن الناس غير المغامرين الذين يفشلون في العيش إلى أقصى حد لأنهم يخشون الموت، سوف يموتون عاجلاً أم آجلاً. سوف يموتون مع أنهم لم يعيشوا الحياة أبداً. لقد ماتوا بالفعل، مجازياً، عذة مزارت. وهذا ما قصده شكسبير عندما كتب: «يموت الجبناء عذة مزارت قبل وفاتهم. أما الشجاع فلا يموت إلا مرة واحدة»، [يوليوس قيصر، الفصل الثاني، 2].

ظاهرياً، إن حياة الشخص الذي اعتنق فناءه الخاص قد لا تختلف عن حياة جاره الذي لم يعتنقه، ولكن باعتناقه فناءه جعل حياته فريدة من نوعها، فقد حقق الأصالة، على الأقل بالمعنى الهيدغري من الوجود الحقيقي والأصيل-نحو-الموت: فالوجودي الحقيقي/الأصيل لا ينبغي أبداً أن يعيش وكأنه سيعيش إلى الأبد، فيهدر وقته ويؤجل إلى ما لا نهاية الأمور التي يرغب القيام بها حقاً. ومع ذلك، لا حاجة لأن أضيف أنه يجب أن يعيش حياته وكأن كل يوم هو آخر يوم له، لأن الإنسان لا يمكنه تحقيق الكثير في الحياة إذا لم يضع خططا طويلة الأجل نسبياً، وانتظر بعض الوقت حتى يحين أفضل وقت للتصرف والعمل.

عرفت ذات مرة رجلاً حاول دائماً أن يعيش اللحظة، ويستمتع بكل متعة ولذة يمكنه أن يحصل عليها. كان يتعبد في ضريح الإشباع الفوري والآني، وينظر إلى الخصال مثل الضبر والحصافة والاعتدال والحكمة بازدراء بصفتها إرضاء مؤجلاً. لطالما استخدم عبارة «إرضاء مؤجل» عندما كان يسخر من الأشخاص الذين يحدون من شربهم للخمر، أو يذخرون أموالهم أو يتقاعدون في سن مبكرة. كان متمسكاً بفلسفته بشكلٍ مثير للإعجاب، وعاش بعض الأوقات العصيبة، لكنه تحوّل إلى مدمن على الكحول قبل سن الثلاثين وتوفي في حادث مأساوي.

إذا عاش الإنسان حقاً كل يوم كما لو كان آخر يوم في حياته، فإنه سيقضي كل يوم في حالة من الذعر حتى أثناء الحفلات ويحوّل نفسه بسرعة إلى حطامٍ عصبيٍ مخمورٍ ومفلس. ومع ذلك على الإنسان أن يعيش حياته مُدركاً أن كل لحظة، كل

يوم، هو شيء ثمين ولا يمكن الاستغناء عنه أو تعويضه أبداً. فالإقلاع عن التدخين، وتناول النخالة، وإحكام أحزمة الأمان في السيارة، وتجنب الاغتياال، جميعها، ستمنحك على الأرجح مزيداً من الوقت، ولكن ليس هذا هو الهدف. ورغم أنه من المنطقي أن تبذل قصارى جهدك لإطالة عمرك، إلا أنه لا جدوى من شراء المزيد من الوقت لنفسك إذا لم تحقق أقصى إمكاناتك منه. وكما قال أبراهام لينكولن، الزجل العظيم الذي حقق أقصى إمكاناته من حياته 56 عامًا وشهز واحدًا و24 يومًا، ولكن من الواضح أنه لم يقل ذلك: «في النهاية، ليست سنوات عمرك هي التي تُحسب، بل الحياة التي تحيها خلال سنواتك».

كُن وجوديًا حقيقيًا، كُن أصيلاً، واغتنم حزيتك، اغتنم يومك. «كارب دايم/ Carpe diem» أو «انتهز الفرصة» كما اعتاد الزومان الثبلاء أن يقولوا.



## الفصل الخامس المشورة الوجودية

ذكرت سابقًا موضوع المشورة الوجودية، وهي ممارسة مُربكة يُفترض فيها أن يساعد المستمعون الجيدون الذين لديهم اضطلاع بالفلسفة الوجودية الآخرين على البدء في عيش حياة أكثر صدقًا وإيجابية وخالية من الندم. وبما أن هذا الكتاب نوع من التمارين في الإرشاد الوجودي، ولو لمجرد أنه يقدم نصائح حول كيفية أن تكون وجوديًا، فقد اعتقدتُ على سبيل الاستنتاج أنني في النهاية سأعود إلى موضوع المشورة الوجودية وأقول المزيد عنها. ففي نهاية المطاف، قد تشعر أنك بحاجة إلى استشارة وجودية بعد قراءة هذا الكتاب، أو ربما تفكر في أن تصبح أنت نفسك مستشارًا وجوديًا تقدم المشورة وترتي لحية طويلة، وتقول عبارات حكيمة أمام أريكة من الجلد.

تهدف المشورة الوجودية بشكلٍ عام إلى مساعدة الناس على إحداث تغييرات جذرية في حياتهم أو في أنفسهم نحو الأفضل. وسوف يشجع المستشار عميله (مريضه) على استكشاف ما يفهمه من خلال إجراء تغييرات نحو الأفضل. وأثناء عملية الاستشارة، قد تتغير أفكار العميل في ما يتعلق بما هو أفضل بالنسبة له أو لها. عند التأكيد على عدم ثباتنا، وأنا كائنات متغيرة، وأنا أحرار على الأقل في السعي للثغلب على مواقفنا وعاداتنا وإخفاقاتنا ووضعنا الحالي، فإن المستشار الوجودي سيشرح العميل على إدراك إمكانية تحقيق الهدف العام من العملية الاستشارية وهو التحسين الذاتي. وإذا كنا ما نحن عليه، فلا أمل لنا في تغيير ما نحن عليه عن قصد، فنحن عالقون بما نحن عليه، ولكن إذا كنا نتاج اختياراتنا، عندئذ سيكون هناك دائمًا أمل في الثغلب على وضعنا وتجاوز ما نحن عليه الآن وتغييره.

تتمثل إحدى المهمات الرئيسية للمستشار الوجودي في إقناع العميل/المريض بأنه خُرُ بالطريقة التي وصفناها، وعلى هذا النحو، فإنه يمتلك القدرة على تحسين ذاته نحو الأفضل. وستتضمن هذه العملية شيئًا مثل النقاش الفلسفي، يُطرح على المستوى الذي يمكن للعميل التعامل معه، ولكن يجب ألا يتضمن تنقرا أو انتقادًا

للعمل لمواجهة الحقائق الوجودية الضعبة قبل أن يكون مستعدًا لمواجهتها.

وهنا يكمن الفرق الكبير بين هذا الكتاب والمشورة الوجودية. إذ يسرد هذا الكتاب الحقائق الوجودية الضعبة ويضعها على المحك مع قليل من التساهل. ولكن المستشار الوجودي البارع كالحبيب الطيب والضاح، بطيء ولطيف. وكما تقول إيمي فان دورزين سميت في كتابها: المشورة الوجودية والعلاج النفسي في الممارسة العملية *Existential Counseling and Psychotherapy in Practice*, Emmy van Deurzen: «تتضمن مهارات المشورة الأساسية القدرة على الإصغاء بدلاً من التخمين، والثقويم بدلاً من تشويه المعنى، وطمأننة المريض بدلاً من إرباكه»، [المشورة الوجودية، ص 236]. بطبيعة الحال، من مصلحة المستشار المالية أن يكون بطيئًا ولطيفًا دائمًا، وأن تمتد جلسات العلاج فترةً طويلة، وأن يساعد عملاءه بأن يدفعوا مبالغ مالية زائدة إضافة إلى وصفة المهدئات باهظة الثمن.

تركز المشورة الوجودية بشكلٍ كبير على الخوض في ماضي العميل، وعلى تجميع سيرته الذاتية الفريدة. وقد أوضح سارتر أسلوب التحليل النفسي الوجودي الذي تقوم على أساسه المشورة الوجودية من خلال كتابة العديد من السير التحليلية النفسية المفضلة للغاية للكاتب الفرنسيين المشهورين. وبصرف النظر عن الغوص في الأعماق النفسية المرعبة لشارل بودلير وجان جينيه وغوستاف فلوبير، تُظهر هذه السير الذاتية كيف ينبغي تطبيق منهج التحليل النفسي الوجودي. وكما فعل سارتر تمامًا مع كتابه الفرنسيين، يبذل المرشدون الوجوديون قصارى جهدهم للحفاظ على الفرد بدلاً من عزله وتفسيره بعيدًا عن «وجوده» وتصنيفه عن طريق وضع مجموعة من التصنيفات النفسية العالمية لوصف شخصيته الفريدة. الهدف هنا ليس القول إن هذا الشخص مكتئب أو عصبي أو مزاجي أو أي شيء من هذه التصنيفات، بل اكتشاف خياره الأساسي الفريد الخاص به.

يمكن إرجاع خيارات الشخص إلى اختيار أساسي أو أصلي *original* اتخذه بنفسه بناءً على، أو استجابةً لحدث معين في مرحلة الطفولة وقع خلال بداية تشكل

وعيه الذاتي. ربما كان الحدث تافها في حد ذاته -شجار مع شقيقته على سبيل المثال حول كعكة الشاي الأخيرة- ولكن رذ فعله على الحدث كان بالغ الأهمية من حيث كونه بداية عملية معينة حيث يختار أفعالاً أو تصرفات تؤكد أو تنكر وجهة نظره في نفسه باعتباره نوعاً معيناً من الأشخاص. السلوك أو التصرفات التي يختارها الشخص استجابة لاختياره الأساسي تشكل مشروعه الأساسي. والاختيار الأساسي للشخص هو اختيار تعسفي اعتباطي ومن دون أي أساس، ولكنه مع ذلك اختيار شخصي-ذاتي يُرسي الأسس لكل اختيار أو تصرف لاحق، ومن الجدير بالذكر مزة أخرى أن الاختيار الأساسي لكل شخص هو اختيار فريد من نوعه ولا يمكن اكتشافه إلا من خلال استكشاف تفصيلي لتاريخه الشخصي.

يرى كل من سارتر ولينغ، وغيرهما من المحللين النفسانيين الوجوديين، أنه من الممكن أن يخضع الشخص لتحوّل جذري من خلال تحديد نفسه، على أمل أن يكون ذلك نحو الأفضل عن طريق تأسيس اختيار أساسي جديد لنفسه وبنفسه. وتكتسب قدرة كل شخص على التحوّل الجذري أهمية قصوى فيما يتعلق بعملية المشورة الوجودية. سؤال: كم يلزم من المستشارين الوجوديين لتغيير مصباح كهربائي؟ جواب: واحد فقط. ولكن يجب أن يعتقد كل من المستشار والمصباح الكهربائي أن التغيير ممكن.

وفقاً لسارتر، واجه غوستاف فلوبيير، مؤلف رواية مدام بوفاري، تغييراً جذرياً في أوائل العشرينيات من حياته غير اتجاهها تمامًا. ولكن لم ينجم ذلك عن مستشار وجودي، بل عن حوادث وقعت في حياة فلوبيير بلغت به مرحلة الأزمة. ولفهم التحوّل الجذري عند فلوبيير، عليك أن تعرف القليل عن خلفيته العائلية. في الحقيقة، يعتقد سارتر أنك بحاجة إلى معرفة كل شيء تمامًا عن خلفية عائلة فلوبيير لفهم تحوّل الجذري، وهذا هو السبب الذي دفع سارتر لكتابة أطول كتاب له على الإطلاق يشرح فيه كل التفاصيل في حياة فلوبييرهما كانت ضئيلة، كأوقاته وتدريبه على استخدام «النونية». ولكن لكي يُبقي هذا الكتاب قصيرًا حتى لا يبعث على الملل، يجب أن نكتفي بلمحة سريعة عن تاريخ عائلة فلوبيير.

إذا كنت -مثلي- تقول دائمًا: «أنا أوم الوالدين»، حتى قبل أن تعرف تفاصيل الحالة المحزنة التي واجهها الشاب المتأزم، فإن سماع قصة فلوبير لن يؤذي إلا إلى تعزيز ثقتك بهذا الزأي المتحيز القديم. بدلًا من إفساد طفلهما، على عكس كل الآباء الحمقى، ساعد والدا فلوبير ابنهما عن غير قصد في أن يصبح واحدًا من أعظم الشخصيات في تاريخ الأدب.

توفيت جدة غوستاف فلوبير وهي تِلذ والدته كارولين. وبقي جده الأرملة مفجوعًا مفضور الفؤاد طوال حياته. تُعزز الشعور بالذنب الذي شعرت به كارولين لقتل والدتها بوفاة والدها عندما كانت لا تزال في العاشرة من عمرها. لم يُحب الأب ابنته بما يكفي ليرغب بالاستمرار في الحياة. أعادت كارولين إحياء ذكرى والدها وخففت من شعورها بالذنب بالزواج من شريكه وشبيهه، أشيل-كلوفانس فلوبير، وكان طبييًا قويًا ومتسلطًا وناجحًا يكبرها بعدة سنوات. في البداية كان زواجهما سعيدًا، وكانت كارولين شغوفة بزوجه، وأنجبت ابنها أشيل. وبحلول الوقت الذي أنجبت فيه غوستاف، كانت كارولين قد فقدت عددًا من الأطفال، وكان زوجها يقيم علاقات مع العديد من العشيقات.

أرادت كارولين إنجاب ابنة، لتكون رفيقة تعوّض فيها عن طفولتها الوحيدة، لذلك كان مجيء الذكر غوستاف أمرًا محبظًا بالنسبة لها. ليس هذا فحسب، ولكن بما أن الأخوين اللذين سبقاه مباشرة قد توفيا، لم يكن من المتوقع أن يعيش الطفل غوستاف. لم يتلق هذا الطفل المخيب للآمال وعديم المستقبل المودة والرعاية الكافيتين، ولم يبذل والداه أي جهد باستثناء تهدئته. يعزف سارتر سلبية فلوبير كاختيار أساسي شخصي لنفسه، حتى يخضع على الأقل لتحوّله الراديكالي. لم يُشجع فلوبير على الاستجابة، والشعور بأن لديه هدفًا ما، وأنه يمكن أن يكون أكثر من مجرد شيء على والدته أن تُرثه بالبودرة وتغير حفّاضاته.

لم يكن غوستاف بحالة أفضل مع والده، الذي كانت اهتماماته وآماله مُوجّهة صوب شقيق غوستاف الأكبر، أشيل، الذي أصبح في نهاية المطاف طبييًا ناجحًا مثل والده. كان غوستاف يشعر بالغيرة من أشيل الذكي والناجح. كان التطور الفكري



لغوستاف بطيئا بشكل مؤلم، لم يكن قادرا على القراءة في سن السابعة. وعززت عائلته من شعوره بالذونية ورسخت من تدني تقديره لذاته باعتباره مجرد إنسان أخرق - ومن هنا جاء العنوان الساخر لكتاب سارتر الكبير *أحمق العائلة The Family Idiot*.

تعلم غوستاف في النهاية القراءة بشكل جيد على يد الكاهن المحلي. ومع أن غوستاف كان لا يزال سلبيا في سلوكه العام، كما جعلته تصرفاته الانطوائية-التأملية يبدو شخصا بسيطا، إلا أنه أدرك قدرته الجديدة، وبحلول التاسعة بدأ بكتابة القصص. إلا أن أكيل كلوفانس قزر -من دون أن يسأل غوستاف عن رأيه- أن يصبح ابنه محاميا. كان غوستاف سلبيا كعادته، لذا خضع لخطة والده التي رسمها له، وبقي يعاني طوال الوقت من اضطرابات عصبية-نفسية.

حدثت النقطة الحاسمة في حياة غوستاف في العام 1844 عندما عانى انهيارا عصبيا، وربما كانت نوبة صرع. أصيب بالعجز جزاء هذا الانهيار، ولم يغد قادرا على متابعة المهنة التي اختارها له والده. كانت أزمته، التي ربما تكون ناتجة من نفسه، فرصة لغوستاف ليتحزر أخيرا من هيمنة والده ويصبح كاتبًا. وبقي هذا العاجز، كونه غير قادر على القيام بما هو أفضل من ذلك، يكتب. تحزر هذا الأحمق أخيرا ليحول نفسه إلى كاتب عبقرى. كانت أزمة فلوبيير، بالنسبة لسارتر، تحولا جذريا نحو الأصالة، وفعلا لتأكيد الذات وإثباتها، إذ ساعده هذا التحول في النهاية على التحزر من سلبيته، واختياره عدم الاختيار، وسوء النية. فمن خلال فعلٍ كان يبدو انهيارا عقليا ظاهريا، لكنه في الحقيقة كان تحولا جذريا نحو تأكيد الذات والحرية، لم يغد غوستاف موجودا للغير، أو من أجل الآخرين، بل موجود لذاته.

من خلال توعية العميل/المريض بحزبته المحتومة وغير القابلة للتصرف، أي من خلال مساعدته على اكتشاف أنه -مثل فلوبيير- مثل الجميع، ليس كيانا ثابتا، بل نتاج اختيار أساسي-شخصي يمكن تغييره، يهدف الفرشد الوجودي إلى إلهام العديد من الناس للبدء في صوغ استراتيجيات للتغلب والتمكن والتجاوز. في هذه المرحلة، يمكن للمستشار أن ينصح العميل بأنماط السلوك الفمكنة التي قد يتبناها من أجل

إحداث تغييرات إيجابية في علاقته مع نفسه ومع العالم والآخرين.

يقدم لنا المستشار الوجودي فيكتور فرانكل مثالاً عن رجل كان يخشى التصرف في حضور الآخرين مما يجعله يتصبب غرقاً. شجعه فرانكل على اختيار موقف الفخر تجاه قدرته على التعزق. ليقول لنفسه عندما يلتقي بالأشخاص الذين يتسببون في إثارة قلقه: «لقد كنت أتعزق ليتراً واحداً فقط من قبل، لكني الآن أصب ما لا يقل عن عشرة لترات!». وحسب فرانكل، سمحت هذه الاستراتيجية للرجل بالتخلص من رهابه بسرعة.

في كثير من الحالات، قد لا يحتاج العميل إلى نصيحة المستشار لتطوير مثل هذه الاستراتيجيات. إذ ستتولد هذه الاستراتيجيات لديه كنتيجة لوعيه بحزبته، وأن التغيير الجذري ممكن وما إلى ذلك. وتظهر حقيقة أن العميل يقوم بصوغ استراتيجياته الخاصة من خلال إحرازه تقدماً ملحوظاً. تشجع المشورات الوجودية العملاء دائماً على أخذ زمام المبادرة. وهذا ليس أمراً مفاجئاً لأن الهدف الرئيسي من تمارين الإرشاد الوجودي هو التمكين الشخصي.

قد يكون تطوير الوعي الفكري للعميل بحزبته هو الخطوة الأولى نحو قهر رهاب العناكب لديه *Arachnophobia*. (كان كل من الرئيس الأمريكي السابق جورج دبليو بوش ورئيس الوزراء البريطاني السابق طوني بليير يعانيان من زهاب العراق *Iraqnophobia*، ولكن للأسف لا يوجد علاج لهذه الحالة). عندما يدرك العميل أنه ليس شخصاً يخاف من العناكب، وأنه، بمعنى ما، يختار نفسه كشخص ليس لديه خيار سوى الخوف من العناكب. وهو يؤكد هذا الخيار في كل مرة يتصرف فيها بخوف تجاه العناكب بقتلها. يتمثل الحل لرهابه في الامتناع بفعل الإرادة - طبعا سيكون ذلك صعباً في البداية - لتجنب جميع السلوكيات والأفعال التي تؤكد اعتقاده الخاطئ بأن خوفه عبارة عن حالة هو عالق فيها، ولا يستطيع الخروج منها. وبالتخلي عن هذا المشروع المستدام من الخوف غير العقلاني، يتعين عليه أن يدرك في نهاية المطاف أنه لا يوجد ما يدعو للخوف من عناكب البيوت التي تعيش في المنازل مع الإنسان. ولكن إذا كان يعيش في أستراليا حيث تتواجد عناكب سامة

مختلفة، بما فيها الأرملة السوداء القاتلة، فرنما من الأفضل له أن يحتفظ برهابه من العناكب. إن الزهاب الفرضي والغصاب ليسا سينين بالمطلق، فهما يحمياننا ويوجهاننا في اتجاهات مفيدة.

وبالدرجة نفسها التي يسعى فيها المستشار الوجودي إلى مساعدة العميل على الأتصال بحريته وقدرته على التغيير، فإنه يسعى أيضًا للتوفيق بينه وبين حقائق أساسية معينة للحالة الإنسانية كما تحددها الوجودية. على سبيل المثال: قد ينتج عن حقيقة أننا دائنًا في حالة صيرورة مستمرة وعيًا بحقيقة مفادها أننا لن نحقق حالة الاكتمال أبدًا - حتى لو فزنا باليانصيب، أو سبحنا مع الذلافين، أو سعدنا بدبابة فوق حافلة. سيكون هناك دائنًا شيء ما نريده أكثر؛ شيء نشعر بأنه مفقود، لأنّ الثوق إلى شيء ما، والاعتقاد بأنّ العشب أكثر اخضرارًا على الجانب الآخر (أي أنّ الأمور أفضل)، أمر أساسي لمخلوق يفتقر إلى نفسه في الحاضر، ويسعى باستمرار للتصالح مع نفسه في المستقبل. وتعمل المشورة الوجودية على افتراض أن الناس سيجنبون أنفسهم قدرًا كبيرًا من البؤس إذا أدركوا هذه الحقيقة فقط بدلًا من التفكير في أنهم يعانون من شيء خطير لأنهم لا يشعرون بالسعادة القصوى والرضا التام طوال الوقت.

من ناحية، تهدف المشورة الوجودية إلى إظهار أن الناس ليسوا مضطربين إلى تحقل حقيقتهم. بمعنى آخر، تهدف إلى توعيتهم بأنّ حقيقة البقاء على قيد الحياة ذاتها تواجهنا جميعًا ببعض الضعوبات التي لا يمكن تجنبها. ولنتأمل هنا موقف المشورة الوجودية إزاء القلق، على النحو الذي عبّر عنه غاري س. بلكين في كتابه: مقدمة إلى المشورة *Introduction to Counseling*. لقد رأينا بالفعل، وفقًا للوجوديين، أن القلق سفة أساسية لا مَفَرّ منها لنذكر أننا أحرار. يكتب بلكين قائلاً: «المستشار الوجودي، على عكس مستشار التحليل النفسي أو السلوكي، لا يرى القلق كحالة خطيرة أو غصابية. بدلًا من ذلك، يُنظر إلى القلق كشرط أساسي للوجود. ووظيفة المستشار هي مساعدة العميل على قبول القلق كجزء من كينونته الجوهرية»، [مقدمة إلى المشورة، ص 187]. فتقبّل درجة معينة من القلق يمكن أن ينقذ الشخص من دوامة القلق المتصاعدة حيث يشعر بالقلق من كونه قلقًا.

الهدف الثاني من المشورة الوجودية هو مساعدة العملاء على اكتشاف المعنى في حياتهم. في ظاهر الأمر، يبدو هذا شكلاً غريباً من أشكال المشورة المدعومة بفلسفة تبشر بأن الحياة في جوهرها عبثية وخالية من أي معنى. لكن ما ينبغي فهمه هو ما يترتب عن هذا الاعتقاد باللامعنى أو اللاجدوى الجوهرى للحياة. أي إن الناس هم وحدهم من يمكنهم إضفاء معنى على حياتهم من خلال الأهداف والمشاريع التي يضعونها لأنفسهم، والخيارات التي يتخذونها، والإجراءات التي يتصرفون وفقها. تهدف المشورة الوجودية إلى التفاؤل والسعي لتوليد قناعة عند العميل أن حياته أو حياتها كتابٌ لم يكتب بعد، ولا أحد يستطيع كتابته إلا هو أو هي.

الحياة لها المعنى الذي تختار أنت وحدك إضفاءه عليها.



## المصادر والمراجع

- Allen, Woody, *Side Effects* (New York: Ballantine, 1991).
- Belkin, Gary S., *Introduction to Counselling* (Dubuque, IA: W. C. Brown, 1988).
- Camus, Albert, *The Myth of Sisyphus* , trans. Justin O'Brien (London: Penguin, 2006).
- Cox, Gary, *The Sartre Dictionary* (London and New York: Continuum, 2008).
- de Beauvoir, Simone, *The Ethics of Ambiguity* , trans. Bernard Frechtman (New York: Citadel Press, 2000).
- Dickens, Charles, *Bleak House* (London: Penguin, 2003).
- Donne, John, *Meditation XVII* , in Donne, *Selected Poems* (London: Penguin, 2006).
- Dostoevsky, Fyodor, *Crime and Punishment* , trans. David Magarshack (London: Penguin, 2007).
- Flaubert, Gustave, *Madame Bovary* , trans. Geoffrey Wall (London: Penguin, 2003).
- Golomb, Jacob, 'Nietzsche on Authenticity', *Philosophy Today* , vol. 34, 1990.
- Heidegger, Martin, *Being and Time* , trans. John Macquarrie and Edward Robinson (Oxford: Blackwell, 1993).
- Kierkegaard, Søren, *Concluding Unscientific Posts cript* , trans.

**Alastair Hannay (Cambridge: Cambridge University Press, 2009).**

- Laing, Ronald D., *The Divided Self : An Existential Study in Sanity and Madness* (London: Penguin, 1990).

- McCulloch, Gregory, *Using Sartre : An Analytical Introduction to Early Sartrean Themes* (London and New York: Routledge, 1994)

- Merleau-Ponty, Maurice, *Phenomenology of Perception* , trans. Colin Smith (London and New York: Routledge, 2002).

- Murdoch, Iris, *Sartre : Romantic Rationalist* (London: Fontana, 1968).

- Nietzsche, Friedrich, *Beyond Good and Evil : Prelude to a Philosophy of the Future* , trans. R. J. Hollingdale (London: Penguin, 2003).

- *Ecce Homo : How One Becomes What One Is* , trans. R. J. Hollingdale (London: Penguin, 2004).

- *The Gay Science* , trans. Walter Kaufmann (New York: Vintage Press, 1974).

- *Thus Spoke Zarathustra* , trans. Graham Parkes (Oxford: Oxford University Press, 2005).

- Plato, *The Republic* , trans. Desmond Lee (London: Penguin, 2003).

- Sartre, Jean-Paul, *The Age of Reason* , trans. David Caute (London: Penguin, 2001). See also *Roads to Freedom*.

- *Being and Nothingness : An Essay on Phenomenological*

*Prohibitorum* ) and the works prohibited therein. Works by Bacon, Galileo, Descartes, Milton, Pascal, Locke, Voltaire, Hume, Rousseau, Flaubert, Zola, Sartre, etc.

- Warnock, Mary, *Existentialism* (Oxford: Oxford University Press, 1992).

---

(1) الطرفة الأصلية على النحو التالي:

To BE is to DO - Jean Paul Sartre.

Do Be Do Be do - Frank Sinatra.

(2) الإمكانية هي حدث لا يمكننا التأكد مما إذا كان سيحدث أم لا. يصف الإمكان بشكل عرضي ما قد يحدث أو لا يحدث. ويستخدم هذا المصطلح لوصف حدث أو موقف، وهو نتيجة محتملة، ولكن من المستحيل التنبؤ بها على وجه اليقين. [المترجم]

(3) هي طريقة لبناء أو تعديل أو إصلاح الأمور من دون مساعدة مباشرة من الخبراء والمحترفين. [المترجم]

Telegram:@mbooks90